القسم الثالث

خطط الدراسة ومناهجها

نعم هناك خطط للدراسة، وهناك مناهج ، لا يمكن أن يتخطاها الطالب ، أو يتعداها الشيخ ، أو تعارضها المشيخة . ولكن ما هى ؟ وما زمنها ؟ ومتى تبتدىء الدراسة ؟ وكيف تنتهى ؟ كل ذلك مرسوم عملا ، لا قولا . فهى أشبه بقوانين غير مكتوبة

Unwritten Laws

فالواقع هو الذى يبدأ السنة الدراسية ، وهو الذى يختمها . والعمل هو الذى يبدأ اليوم الدراسى ، والفراغ منه هو الذى يختمه ، فلا ساعة معينة ، ولا إشارة للبدء والختام ، بل شروق الشمس وغروبها يقربان ذلك ، والصيف والشتاء يقدران بعضه ، وليس هناك إلا تعليمات يسيرة عن نظام امتحان العالمية والامتحانات الرسمية تجعلها خاضعة لبعض القوانين العامة أو الخاصة ، التى يتبعها الأزهر الشريف فى ذلك .

السنة الدراسية

١ ــ نحن الآن ضحى يوم سبت من شوال ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر أو أكثر على الإجازة السنوية . ليس بالجامع من الطلبة غير عدد ممن اعتادوا البقاء فيه من أهل طنطا أو البلاد المجاورة ، وغير أفراد ممن سئموا طول الإجازة ، أو هربوا مما كانوا يكلفونه من أعمال الفلاحة فى قراهم ، أو ممن ألجأهم آباؤهم إلى السفر محافظة على ابتداء الدراسة ، مثلى .

فى هذا الوقت عقدت حلقة أمام الأسطوانة الثالثة من الصف القبلى ، على يسار الداخل لمقام السيد البدوى ، قوامها شيوخ ملتحون بلحى بيضاء ، ومعممون بعمامات كبيرة ، وأمامهم محافظهم العتيقة ، أو محافظ من الجلد الأصفر الذى اسودّ بعضه من طول العهد بالقبض عليها . كل أولئك طلاب من قدامى الطلبة أو المعيدين ، يحضرون درس تفسير أبى السعود ، الذى كان يقرؤه المغفور له الشيخ ابراهيم الظواهرى ، شيخ الجامع فى ذلك الوقت .

ولكن لماذا عقدت حلقة الدرس هنا ، وعهدنا بها دائما أن تكون فى الطبق الثانى بإحدى حجر الإدارة ، لمنزلة الشيخ بين علماء الجامع ، ولضعف صوته ، فلا يستطيع أن يتكلم بصوت

عال ، إذا هو درّس فى الجامع ، بين ضوضاء الطلبة ، وأصوات الزائرين ؟ !

إنه ينزل اليوم فقط إلى الجامع ليقرأ درسه هنا ، وكان متعذرا على صغار الطلاب مثلى قبلا ، أن يستمع لشيخ الجامع فى درسه هذا فى مكانه الدائم ؛ ولكن فى هذا الوقت — وقت العطلة — حُبب إلىّ أن أجلس هنا بين كبار الطلاب ، أو شيوخ المجاورين ، أو طلاب العالمية ، وقد أصبحت أحسن جلستهم ، فأثنى ركبتى وأنحنى إلى الأمام ، كما ينحنى من يقارب السجود ؛ على أنه ليس فى الجامع الآن مدرس واحد ، حتى ولا أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى الجندى ، مع أنه من سكان طنطا ، ومنزله على بضع خطوات من الجامع !

ها هو ذا الشيخ الكبير فى طريقه إلى الدرس ، قد دخل كعادته ، من « باب السر » ومر بالمقام ، وقرأ الفاتحة أمام مقصورة السيد ، وخلفه الجندى أو « المشد » ، ثم خرج من بابه الثانى ، وهو شيخ عارك الدهر وعركه ثمانين عاما ، وقصد إلى رأس الحلقة بجوار الاسطوانة ، فتربع فوق فروة وثيرة . وما إن شعر الطلاب بقدومه حتى هرولوا جميعا إلى أماكنهم فى الحلقة وكان لى نصيب منها ، فأخذت مقعدى بينهم ، وبدأ الشيخ يفسر

قوله تعالى فى سورة المائدة « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

أخذ الشيخ يشرح ويفسر ويحقق ، ويسرد آراء المفسرين والمؤولين ، حتى أوسع الآية تدقيقا وتأويلا ، وأشبع الطلبة مراجعة ومطالعة ، وفيما هو كذلك ، إذ بسيدة من زوار السيد خرجت من باب المقام تحمل فى يدها مقدارا من « القراقيش » أو الفرنى المعجون بالسكر ، فراعها أو أعجبها هذه الحلقة الوقور ، شيخاً وطلاباً ، فنثرت ما فى جعبتها من هذا الفرنى اللذيذ ، حتى غطت الحصير وسط الحلقة بطبقة منه . كل ذلك والشيخ منهمك فى الشرح والتفسير ، وجميع الطلاب مصغون إليه ، فلم يتحرك واحد منهم ، احتراما لشيخ الجامع ، ولدرس التفسير ، ولسنهم العالية . ولكن الشيخ بعد أن أتم تفسير الآية ، سكت قليلا ثم قال مشيراً إلى الطلبة : « كلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ! » تخطفنا فى أدب وهدوء تلك اللقيمات اللذيذة ، أو تلك الهدية أو ذلك النذر ، ولو كنا فى غير هذا المكان أو هذا المقام ، لداهم بعضنا بعضاً ، وداس قوينا ضعيفنا فى سبيل الحصول على واحدة أو اثنتين من هذا الفرنى ، كما اعتدنا أن نفعل ، عندما يحضر بعض الفلاحين شيئا من الذرة المشوية ، أو قرصاً أو غيرها ، يقذف بها فى صحن الجامع أو فى المقام .

ياترى ! هل يعود الشيخ غدا إلى هذا المكان ، فيلقى درسه التالى فى التفسير ، حتى نأكل مما يرزقنا الله حلالا طيبا ؟ ! كلا ! إنه الدرس الوحيد فى العام ! إنه إعلان افتتاح الدراسة فى الجامع أول السنة الدراسية . وعما قريب ينتشر خبر ابتداء الدراسة ، فيتوافد الشيوخ والطلاب ، رويداً رويداً ، بعد أن يطير إليهم النبأ على لسان التجار الذين يحضرون سوق طنطا (يوم الاثنين) أو على لسان الزوار الذين اتصلوا ببعض الطلاب السابقين إلى الجامع أمثالى . وقد يسافر الطالب قبل رحيله الرسمى ، ليرى هل حضر أحد من الطلبة فى الجامع ! وهكذا يمتد توارد الطلاب وابتداء الشيوخ فى الدراسة أسبوعا أو أسبوعين بعد ذلك . فليس هناك سنة دراسية محدودة المبدأ والنهاية بالضبط فى يوم معين ، ولا قانون خاص بذلك .

وكما بدئت الدراسة شيئا فشيئا ، فإن الطلبة يأخذون فى التسلل من الجامع ، زرافات ووحدانا ، قبل إجازة الصيف « غير المحدودة » ، أو قبل مسامحة ثلاثة الأشهر « رجب وشعبان ورمضان » أو قبل مسامحة موالد السيد البدوى ، فكما حضروا بعد ابتداء الدراسة بشهر ، كذلك ينصرفون قبل انتهائها بنحو ذلك . وكذلك يفعلون فى مسامحة عيد الأضحى ، ومولد النبى ، وغيرهما من المسامحات القصيرة فى المواسم .

وقد تلحظ المشيخة تسرع الطلاب فى السفر قبل الإجازة بأيام كثيرة ، فيمر الجندى أو الملاحظ لينبه المشايخ فى دروسهم على أن الأجازة لم تتقرر ، وأن الدراسة يجب أن تستمر أسبوعين آخرين أو ثلاثة . ويختلف الشيوخ فى درجة استماع هذا التنبيه وإطاعته أو عصيانه ؛ فهم أحرار : يغيبون متى شاءوا ، ويحضرون للتدريس متى أرادوا . أما الطلاب فلا يضطرون إلى الوجود بالجامع إلا عند الفرز أو الحصر كما رأيت .

ولم يكن للمشيخة عهد بإعلان مواعيد المسامحات أو نشرها فى الصحف كما هو مألوف الآن . ولم تألف إعلان ابتداء الدراسة أو انتهائها بالكتابة مطلقا ، حتى ولا على جدران الجامع أو فى مكان خاص بالإعلان .

ومما يلحظ أن هذه المواعيد لم تكن معروفة بينهم إلا بالتاريخ الهجرى ، يحددون به مواقيت الأجازات الرسمية ، ولا ريب فى أن التاريخ القمرى غير مرتبط بالتاريخ الشمسى ، ولذلك اختلفت المسامحات والعطلات .

أوقات الدراسة وموادها

يمتد اليوم الدراسى من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء ، وتنعقد خلال هذه المدة حلقات الدروس نحو ست مرات :

(ا) فبعد صلاة الفجر مباشرة يكون الدرس الأول ، ولكن لا يزيد عدد حلقاته فى الجامع على أصابع اليد الواحدة ، لأنه يكون لكبار الطلاب غالبا . ويكون غالباً فى مادة التفسير والحديث والتوحيد .

(ب) أما الدرس الثانى فهو درس الشروق أو الصباح ، ويكون كله فى مادة الفقه ، وهى المادة التى يشترك فى دراستها جميع الطلاب من جميع الدرجات . وهو الذى يعتبر الدرس الأساسى ، كما أنه يعتبر أول درس ، لندرة درس الفجر .

(ح) وينعقد فى وقت الضحى حلقات قليلة أيضاً لبعض كبار الشيوخ والمسنين أو الكسالى منهم ، غير أنها مهما قلت تكون أكثر عدداً من درس الفجر .

(ء) ويلى درس الشروق أو الصباح فى الأهمية والكثرة ، درس الظهر . ويكون موضوعه غالبا النحو والصرف أو البلاغة ، وهى المادة التى تلى الفقه فى كثرة طالبيها .

(هـ) أما درس العصر فيقرب فى العدد من درس الظهر ، وتكثر فيه دروس المتقدمين من الطلاب ، التى يدرسها كبار الشيوخ .

(و) وآخر الدروس ما ينعقد بعد صلاة المغرب . وأكثر ما تكون فى الكتب الصغيرة التى لا تستغرق وقتاً طويلا . أو فى آخر السنة خاصة . وإذا كان بينها درس لكبار الطلبة فى كتاب من المطولات ، فقد تزيد الجلسة فيه على ما بين العشاءين ويستمر الشيخ مدة طويلة بعد صلاة العشاء .

هذه هى أوقات الدروس الستة فى اليوم الدراسى ، وليس من الضرورى أن يحضرها كل طالب ، بل قد يحضر الطالب درسين اثنين منها فقط ، وهذا عند كبار الطلاب لأهمية المواد التى يدرسونها وقلة عدد كتبها . أما صغار الطلبة فقد يحضرون فى اليوم خمسة دروس لكثرة الكتب الصغيرة عندهم ، أو لإعادة كثير منها على عدة شيوخ فى أوقات مختلفة .

١ — ها قد فرغ الناس من صلاة الصبح عقب أذان الفجر ، فهيّا نرتاد الجامع لنشاهد الدروس فى أوقاتها وموادها المختلفة :

هذا هو الشيخ « قطب التلاوى » جلس لقراءة درس التفسير ! إن صوته يدوّى فى الجامع ، لقلة الطلبة فيه من

حفاظ المتون أو مراجعي الدروس ، ولأنه يكاد يكون الدرس الوحيد فيه . استمع إليه يبدأ الدرس بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . وبالسند المتصل إلى الإمام المؤلف رضى الله تعالى عنه قال . قال إيه يامولانا ! ؟ هكذا يتلو البداءة فى الصباح الباكر ، بصوت عال مع الترنم الممزوج بالتواضع ، وعلى هذا النغم يستمر فى درسه ، فيتأثر السامع به ، إن لم يكن لفهم المعنى ، فلحسن التوقيع والترديد ! ولم يكن المقرىء بأقل من الشيخ فى الترتيل والقراءة مع الصوت ذى الحنين . تفرس طلبة هذا الدرس ! إنهم شيوخ كبار أجلاء ! يشبهون أولئك الذين كانوا يحضرون تفسير أبى السعود على شيخ الجامع ! وعددهم قليل أيضاً ، لأنهم صفوة طلاب الدرجة الأولى ، وهم المنتظرون للامتحان العالمية .

فرغ الأستاذ من الدرس مع الشروق ، فقام إليه هؤلاء الطلاب ، سكوتاً أو مع سؤال قصير ، يتعاقبون على تقبيل يده ، كما هى عادة الطلاب مع الشيوخ جميعاً . وقبل أن أنتقل بك إلى درس

آخر ، أذكر لك أن تفسير الجلالين مع حاشية الجمل ، كان التفسير المتداول قراءته ، وقلَّ من يقرأ تفسير البيضاوى أو الفخر أو تفسير أبى السعود . أما كشاف العلوم ، لجار الله الزمخشرى ، فهم ينأون عنه ؛ لما يعتقدون من اعتزال صاحبه ، وأنه كان يحكم فى التفسير « بعقله » ويدلى فيه « برأيه » ، وهذا كان مرغوباً عنه فى نظر العلماء ومن على شاكلتهم من الطلاب[1]

٢ — انجلى الصباح ، وكادت الشمس تشرق . تلفَّت حولك فى الجامع ، فلا تجد اسطوانة (عمودا) إلا وقد التف أمامها حلقة من الطلاب ، فى انتظار شيوخهم ، وهاهم أولاء بدأ يسبق بعضهم بعضاً إلى درسه ، وقد تربع كل واحد منهم على فروة من الصوف فوق حصير المسجد ، مستنداً إلى العمود أو حوله . فلنطوِّف بالجامع لنتفقد بعض هذه الحلقات ، ولا تعجب من نظامها ، فإن التعليم منذ بدء الإسلام كان بالمساجد حلقا ، وأول حلقة تعليم فى الإسلام كانت فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أصحابه يجلسون حوله حلقا ، يتعلمون منه سنن الإسلام وأحكامه ، ومن هنا كثر التعليم فى المساجد على هيئة الحلقات .

نحن الآن أمام حلقة قوامها ٥٠ من المبتدئين ، يحضرون شرح « ابن قاسم الغزى » فى فقه الشافعى ، على الشيخ « ابراهيم

---

(١) انظر الجدول فى آخر هذا الفصل صفحة ١٨٨ .

نصار ، وهو يعيد قراءة هذا الشرح للمرة العاشرة ، لأنه أجاد تدريس هذا الكتاب لصغار الطلبة ، فهو يمثل لهم بالعمل كيفية الوضوء ، ويقف فى وسط الحلقة ليريهم كيف كان النبى يغتسل ، وقد ترى الطلاب أمامه مستغرقين فى الضحك ، حينما يريهم كيف يكون « غسل الميت » ، فيشمر عن ذراعيه ويتناول طالبا كأنه جثمان الميت ، فيتهامس بعض الطلبه قائلين : أنسّى له أن يجيد هذه المهنة ! ؟

لننحرف نحو المحراب لنشاهد أمامه درس الشيخ « محمد الفقى » ! إنه يقرأ شرح الخطيب فى مذهب الشافعى ، ولكن الطلاب أمامه خليط من طلاب الدرجة الثالثة وعدد كبير من طلاب الدرجة الأولى ، الذين يعيدون المذهب ، أى أنهم حضروا أو قرءوا كل كتب المذهب مرة أو مرتين قبل ذلك ، ثم هم الآن يعيدون قراءتها مرة أخرى . ألم تر هذا الشيخ يختلف عن غيره بأنه يجلس على كرسى أو دكة من الخشب لها سياج ، فرش فوقها فروته ، فهو يتكىء على هذا السياج (الدرابزين) بمنة ويسرة ، كلما تعب من جلسته ؟ ! لماذا اعتلى الشيخ هذا الكرسى ؟ إن صوته ضعيف ، وطلابه كثير ؛ لأنه يجيد التحقيق ويطيل الشرح ، ويستغرق فى درسه وقتا طويلا ، ولهذا كثر عنده الطلاب المعيدون الذين يناقشونه القول كثيرا ، ويسألونه مراراً ، ويراجعونه تكراراً

لأنهم من طلاب الدرجة الأولى ! ارجع إلى الإيوان المجاور للمزارات تر درس الشيخ «مصطفى الجندى» وهو مكون من حلقتين. إنه يدرس أيضاً شرح الخطيب . تأمل بين طلابه هذين الشيخين الكبيرين الجالسين تجاه الشيخ ! إنهما من طلاب الدرجة الأولى الذين يعيدون المذهب أيضاً ! انتظر حتى يفرغ الشيخ من درسه تجدهما يطالعون درس الغد لصغار الطلاب !

وهناك درس الشيخ «العريان» أمامه ثلاثة من طلاب الدرجة الثانية يحضرون شرح «التحرير» فى فقه الشافعى أيضا وذلك درس الشيخ «السنتريسى» أمامه تسعة من طلاب الدرجة الأولى يحضرون شرح «المنهج» فى فقه الإمام الشافعى أيضا . من هذا تعلم أن كتب الفقه الشافعى التى كان يدرسها الطلاب فى درجاتهم الثلاث هى «حاشية البرماوى على ابن قاسم» وشرح الخطيب «للدرجة الثالثة» ثم «التحرير» للدرجة الثانية ، و «المنهج» للدرجة الأولى . وهم يقضون فى قراءة هذه الكتب نحو عشر سنوات ، وقد يعيدونها مرة أو مرتين ، فيقال إنهم يعيدون المذهب (١) .

كأنى بك تقول : أريتنى دروس فقه الشافعية ، أفلا تطلعنى على بعض دروس المالكية والحنفية ؟ ! هناك أمام باب المكتبة ، بجانب الاسطوانة الأخيرة من الصف القبلى ، ترى

(١) انظر الجدول بصفحة ١٨٨

درس شيخ المالكية الشيخ « مرسى على طبل » ، وعلى ركن الصحن الشرقى ترى درس الشيخ « على النمر » ، وبقرب باب الرخام تجد درس الشيخ « شبل » والشيخ « سباعى بدر » ، وكلهم من علماء السادة المالكية . وتجد الشيخ « على المنوفى » يقرأ الدرس فى منزله بدرب الأثر ؛ وهو شيخ جليل وقور ، يدل بياض وجهه ، وطول لحيته الطاهرة وكثرة إطراقه ، على استغراق فى التفكير ، وينم هدوءه فى درسه واختيار كبار الطلاب للحضور عليه ، عن سعة فى العلم وتعمق فى البحث . معذرة إليك إذا لم أذكر لك كتب المالكية والحنفية مع المشايخ (١) أما الحنفية فليس أمامى الآن إلا درس الشيخ « محمد الدفتار » وهو شيخ أنيق الملبس ، وسيم الطلعة قليلا ، نظيف الزى مختصره ، يلبس الجبة والقفطان الثمينين الضيقين ، ويؤثرهما على «الفراجية» ذات الأكمام الواسعة العريضة والقفطان المتهدل والحزام الغليظ العريض المتخذ من الصوف الكشميرى . أما حزامه فحريرى رقيق ، وأما عمامته فمنتظمة نظيفة ، فوق « طربوش » رقيق صغير أنيق ، بخلاف عمائم سائر الشيوخ ، ففيها طيات كثيرة من منسوج غليظ غير ناصع البياض أحيانا ، وقد يدسون فيها المشط يخللون به لحاهم الطويلة ، أو جيبا

---

(١) انظر الجدول بصفحة ١٨٨ .

لسواك يستاكون به عند الوضوء ، كما يتخذون تحتها « عرقية » من الموصلى (الشاش) الأخضر .

هذا الشيخ كان يسمى نفسه **شيخ الحنفية** ، وهم قليل بالجامع الأحمدى ، كما أن الشيخ « مرسى على طبل » هو شيخ المالكية فعلا . تأمل تلاميذه تجدهم نخبة من الطلبة المترفين الذين يمتازون عن غيرهم بشىء من أمارات الغنى واليسار ؛ ذلك لأنهم يدرسون الفقه على المذهب الحنفى ، يريدون عرَض الدنيا ، فالعلماء الذين يرشحون للقضاء الشرعى هم **من علماء الحنفية فقط** وهم بذلك يبتغون الجاه ، مع أن « أبا حنيفة » رفض القضاء مرارا ، وعُذب من أجل ذلك . أما غيرهم من الطلاب الشافعيين والمالكيين فإنهم لا يريدون إلا وجه الله فى طلبهم العلم .

أطلت عليك القول فى درس الصباح أو الشروق ، وقد رأيت أن كل دروس هذه الحصة فى الفقه فقط أو فى « الفروع » وأن معظم الطلاب **شافعيون** وأقلهم **مالكيون** وأقل من القليل النادر **حنفيون** وليس بالجامع حنبلى واحد ! ولعلك لحظت أن بعض الدروس فى الكتب الصغيرة مزيج من الطلاب بحيث ترى ابن ١٣ عاما بجانب شيخ جاوز الأربعين ، الأول طالب مستجد ، والثانى سبقت له دراسة هذا الكتاب مرة أو مرتين .

فهو يحضر رغبة فى تحصيل العلم فقط . أو ليعيد المذهب على شيخ كبير حتى يحصل سائر العلوم فيؤدى امتحان (العالمية).

٣ — فإذا كان الوقت ضحى رأيت بالجامع دروسا لاتزيد على عدد أصابع اليد ، فهذا درس الشيخ « بيومى أبو ريا » وهو شيخ عالم فاضل ، جليل وقور ، كأنه جاوز الثمانين ، أوقارب التسعين ! يموج جسمه النحيل فى ثيابه الواسعة ، ويبسم عن بقايا أسنان عبثت بها يد الدهر ، فاذا فتح فاه رأيت أسنانه كأسنان البير أو الأسد الهندى ، بعضها طويل وبعضها قصير . هاهو ذا قد جلس على دكة عالية ، ليقرأ درس « جمع الجوامع » . تأمل طلابه تجدهم شيوخا ، جاوز أكثرهم سن الأربعين ، وأولئك هم الطلاب الذين يستعدون للامتحان النهائى ، أو امتحان « العالمية » من طلاب الدرجة الأولى

و « جمع الجوامع [1] » يكاد يكون الكتاب الواحد الذى يدرس فى علم « الأصول » « أصول الفقه » . وهذا العلم يدرسه جميع طلاب المذاهب المختلفة ، ويشبه فى وضعه مايعرف عنه الفرنجة أو علماء القانون باسم أصول القوانين أو مقدمة القوانين : Introduction to the Study of Law.

وعلماء المعاهد الدينية يدرسون هذا العلم آخر مايدرسون ، بعد دراسة « الفروع » أو علم « الفروع » وهو علم الفقه . وكان

(١) تأليف الشيخ عبد الوهاب السبكى المتوفى سنه ٧٧١ هـ .

الأحرى بهأن يسمى « فلسفة الفقه » حتى لايكون نظام دراسته مقلوباً ، فيدرس « الأصل » بعد « الفرع » . على أن علماء القانون الذين كانوا يبدءون بدراسة « أصول القوانين » كانوا فى حيرة . لأن الطلبة لم يلموا بفروع القوانين التى يضربونها أمثلة لقواعد هذه المادة عند درسها . وإذا أردت حصر دروس « الأصول » فى الجامع كان ذلك سهلا ميسورا . فالكتاب فى نظر الطلاب والشيوخ عظيم ، ولا يتصدى لتدريسه إلا كل فحل من فحول العلماء ولهذا لاتجد أكثر من ثلاثة شيوخ أو أربعة يحرصون على تدريسه . فالذى أذكره منهم ، بعد هذا الشيخ ، السيد محمد عبد الرحيم ، والشيخ محمد الحفناوى . دع هذا الدرس وتقدم بضع خطوات إلى الاسطوانة الثانية أمام مقام سيدى مجاهد تر درس السيد محمد عبدالرحيم ! إنه يقرأ صحيح البخارى ، لخيار طلبة الدرجة الأولى . إرجع إلى الوراء قليلا وقف أمام هذه الحلقة المقلوبة أى التى يجلس شيخها بعكس جلسة الشيخ المدرس ! إنها ليست درسا ، ولكن هذا الطالب الكبير يطالع الدرس الجديد ، درس الغد بعد فراغ درس الشيخ اليوم . تأمل ذلك الشيخ فى شرق الجامع أو غربيه ! إنه شيخ غتى رقيق لم يعتد عمق التفكير فى درسه ، فجلس فى حلقته ، وقد التف حوله بعض كسالى الطلاب الذين اتخذوا حضور العلم زينة فقط ، فلم يرق فى نظرهم غير درس هذا

الشيخ ذى الجاه ، وللجاه — كان — دخل كبير فى التفاف بعض الطلبة حول أغنياء الشيوخ وذوى النفوذ منهم ، فإن لم ينتفعوا بعلمهم ، فإنهم ربما ساعدوهم فى امتحان رومية ، أو فى أخذ جراية ، أو فى السكنى فى مأوة على الأقل . وأمثال هؤلاء الشيوخ معروفون بين الطلبة والعلماء ، لا يمتازون بميزة علمية ، ولا يُعرفون بالتحقيق أو التدقيق الذى يجتذب الطلاب إلى الشيوخ عادة .

دع الطلاب الآن وقد فرغوا من درس الصباح ومطالعة درس الغد ، يطالعها كبارهم لصغارهم ، يتهيئون لطعام الغداء ، ويعدون عدتهم لدرس الظهر ولننتظر أذان الظهر .

٤ — انتهى المصلون من صلاة الظهر ، وعقدت الحلقات بجانب الأساطين كلها كما كان الأمر فى درس الصباح عند شروق الشمس . وقلما يغيب عن درس الظهر إلا عدد من طلاب الرومية الاولى فليس هناك درس جمع الجوامع ولا الحديث والتفسير ، بل قد تجد غالبية الطلبة من الدرجتين الثالثة والثانية وهم يحضرون دروس النحو والصرف كما سترى .

هذا هو الشيخ « ابراهيم عبد المتعال » قد اعتلى أرض النافذة فى الركن الغربى الشمالى من الجامع ، وجلس يقرأ شرح الكفراوى على متن الآجرومية لنحو ٣٠٠ طالب ، وهو شيخ

ذكى فصيح ، سبقت له دراسة كثير من الكتب الكبيرة ، فأخذ يعيد قراءة الكتب الصغيرة للمبتدئين ، فتكاثر عليه الطلاب ، وتسابقوا إلى درسه قبل الظهر بأكثر من ساعة ليدرك كل منهم مكانا بقرب الشيخ ليحسن استماعه له .

وإلى الأسطوانة القريبة تجد الشيخ « السباعى بدر » يدرس شرح الشيخ خالد على الأجرومية لمن سبقت له دراسة الكفراوى مرتين أو ثلاثا . وفى الإيوان المقابل شيخ غير مجاز لأنه طالب على أبواب امتحان « العالمية » هو الشيخ « على داود » جلس لتدريس الأزهرية بتحقيقه المشهور ، وتقريره الفائق ، وعلمه الواسع ، مع التواضع والانكسار ، فانصرف إليه كثير من الطلاب الراغبين فى الاستفادة فكانت حلقته أكبر من حلقات الشيوخ والعلماء المجازين أو المرخص لهم بالتدريس رسميا .

وبالقرب من المحراب تجد الشيخ الوكيل يقرأ شرح القطر ، والشيخ على النمر يقرأ شرح الشذور . وهذه الكتب كلها يحضرها طلاب الدرجة الثالثة .

أما طلاب الدرجة الثانية فالحديثون منهم يحضرون شرح ابن عقيل على متن الألفية ، على هذا الشيخ الطويل العريض تحت الدكة وهو الشيخ « على الجروانى » . وبجوار الأسطوانة التى أمامه تجد الشيخ « احمد الفقى » يقرأ شرح الأشمونى لمن سبقت

له دراسة ابن عقيل . وهما الكتابان المقرران فى النحو والصرف لطلاب الدرجة الثانية[١] . أما طلاب الدرجة الدرجة الأولى فلا يحضرون كتبا فى النحو والصرف . غير أنك قد ترى هناك بجوار دكة الكهف الشيخ « احمد علوان » يدرس القطب على الشمسية فى المنطق للطلاب المتقدمين ممن سبق لهم دراسة السلم وإيساغوجى فى المنطق[١] .

وترى فى درس الظهر ما رأيته فى درس الصباح ، من تفاوت عدد الطلاب تفاوتا غريبا . فشيخ عنده مئات من الطلبة وآخر ليس أمامه إلا أفراد تعد على أصابع اليد !

(١) انظر الجدول صفحة ١٨٨ .

أليس الطلاب أحراراً فى اختيار الشيخ ، وفى اختيار الكتاب الذى يدرسونه ؟ ! وكذلك الشيخ حر فى اختيار الكتاب الذى يدرسه حسب خطته التى وضعها لنفسه أو وضعتها له قوته ومنزلته ومقدرته عند الطلاب ! فقد يحضر الطالب درس الأزهرية وهو لم يتقن درس الشيخ خالد قبله ، وكذلك يدرس الشيخ فنا لم يعط القوة الكافية فيه على تفهيم طلابه . ولهذا يشاهد فى ابتداء العام الدراسى تزاحم الطلاب على شيخ ، ثم ينقص عددهم تدريجا . وبعكس ذلك يتزايد عدد الطلاب على شيخ بدأ درسه بعدد قليل . وقد يكثر عدد الطلاب إلى حد يلجىء هذا الشيخ للجلوس على دكة عالية بعد أن كان يفترش فروته ! فوق حصير الجامع .

(٥) صليت العصر ، وانعقدت حلقات الدروس ، ولكنها أقل عدداً من الظهر ! سأترك الشيخ (الحفناوى) يقرأ درسا فى (جمع الجوامع) لطلاب الدرجة الأولى بجوار باب الرخام . وكذلك الشيخ (أحمد الفقى) يدرس شرح (السعد) على تلخيص المفتاح فى البلاغة بجوار باب سيدى عبد المتعال ، وغيرهما ، وأقتادك إلى درس عجيب ! أما مكانه فعند الاسطوانة المتوسطة على حافة الصحن الشرقية ، ولكنه يشغل رقعة كبيرة من الجامع تشمل ست اسطوانات متجاورة على الأقل ! قد اصطف الطلاب له وتراص بعضهم وراء بعض . وتوافدوا على مكانه قبل

وقته بساعتين . إنك لتعجب حينما ترى هذا الجمع الحاشد ، وهم يتقاتلون للحصول على مجلس متقدم فيه . وقد تكدس طلبة الجامع عنده ، فكأن الجامع قد خلا من الطلبة ! فليس يفر منه طالب مبتدئ ولا يغيب عنه طالب قديم حضر شرح « الكفراوى » مرتين أو ثلاثا أو أربعا ، إن لم يكن لمعلومات إضافية يتلقاها فلطريقة طريقة وأسلوب فى الشرح والتدريس غير مألوف عنده . وهذا هو السر فى إقبال الطلبة على درس الشيخ « محمد الحبيشى » فى شرح الأجرومية ! اسمعه يفخر بأنه كان يدرس فى مدارس نظامية ، وأنه كان يدخل على ٤٠٠ تلميذ من الأفندية « فيضربون » له سلاما وتعظيما !

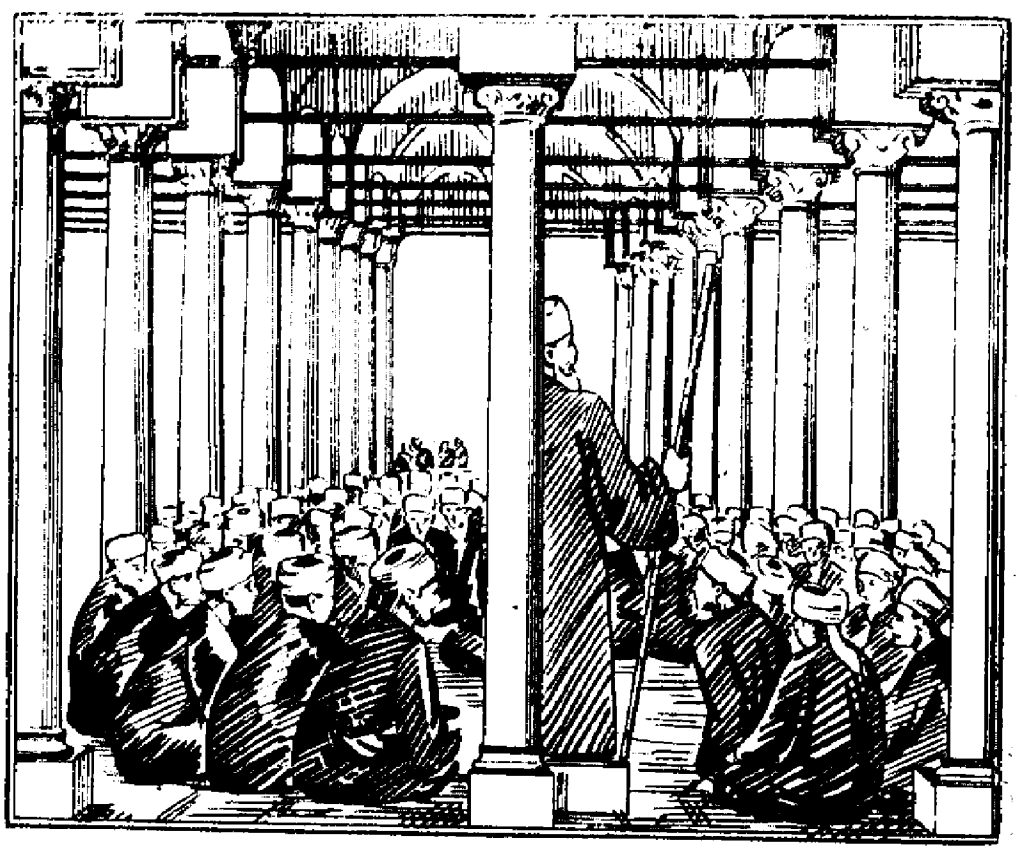

انتظر ! قد حضر الشيخ بعد صلاة العصر فاعتلى دكة كبيرة قوية بجوار عموده ، وهاهو ذا قد وقف وأشرف على مئات الطلبة أمامه ، وفى يده « نبّوت » عصامن خشب الشوم طولها خمسة أذرع ، وهو يشير بها تارة ، ويتوكأ عليها أخرى ! أترى بسطة جسمه وصحته وقوته ، وامتلاء «الفراجية » الواسعة به ؟! إن وقفته وطوله ، وحسن صوته العالى ، ونغمه الرخيم ، ورغبة الطلاب وشوقهم لسماع مايقول ، والأمثلة الواقعية التى يذكرها ، والحكايات الشائقة التى يدمجها فى درسه ، أو يدمج فيها درسه ، كل ذلك يدعو الطلاب للإصغاء فيسمعون كل كلمة يلفظها وكل عبارة يلقيها ! هلا سمعت معارضته للعبارة « قاعدة نحوية : كل الضمائر مبنية » فيقول هو «قاعدة حبيشية : كل الحروف مبنية» ؟! وماأسهل حفظها والتمثيل بها كأنها أصل من أصول النحو ! سل أى طالب عاصره ، يذكرلك كيف كان يدرس أقسام الكلمة (الاسم والفعل والحرف) فيختار طالبا يسميه « الاسم » وثانيا يدعوه « الفعل » وآخر هو «الحرف » ؛ ثم يوزع على كل واحد علاماته ، ويعود فيسأل كلا منهم عن صفاته . وإذا أراد إعادة درس انتحل حكاية موضوعها : « مجاور » كان يخترق شارع « البورصة » فقابله «افندى» وسأله عن هذا الدرس ، مع إضافة عبارات وصفات وعناصر يمليها روح المزح عنده خلال حكايته !

ثم يضيف إلى ذلك أنه إذا كان الطالب ذكيا نبيها مذاكرا درسه، يبادر السائل بالإجابة ، ويقول كيت وكيت ؛ وإلا إذا كان غبيا أو مقصرا تلكأ فى الإجابة ، وأخذ يحك عنقه بأظافره أو «يهرش فى رقبته» علامة البلادة . ولست أنسى أنه كان يتمثل مرة هذا المجاور البليد ، فحك رقبته بأظافره ، فسال الدم من عنقه ، لأنه كان «حاضر الدم» فأخذ يسب «المجاور» و«الأفندى» ويشتم النحو والصرف .

٦ — أذّن المؤذن ، وصليت صلاة المغرب . وأوقدت القناديل ، وانتظمت دروس ما بين العشاءين ! إن عددها قليل جدا ، وأظهرها وأطولها درس السيد « محمد عبد الرحيم » شيخ الغربية . إنه قد جلس إلى عموده تجاه مقام سيدى مجاهد وبعد عمود منه ، وقد تمنظر بمنظاره النظيف ، وبدا وجهه الوسيم تحت عمامته الخضراء فى ضوء « الفانوس » الموضوع على كرسى عن يساره ، وعلا صوته الرخيم فى وسط الحلقة الواسعة التى كانت تضم نخبة من كبار طلاب « العالمية » . إنه يقرأ لهم « جمع الجوامع » أو «التفسير» بتحقيق نورانى . ويفيض عليهم من فيوضاته الربانية ، فدرسه فوق ما فيه من العلم ، درس روحانى يصل ما بين العبد وربه . ولا تنس أن هذا الشيخ يدرس صحيح البخارى ضحى ، لطلبة الدرجة الأولى ، لأنه لا يتصدى لتدريسه

إلا الراسخون والمنتهون فى الصلاح والتقوى . وبهذه المناسبة نذكر أن هذا الشيخ من خيار المرشدين ، وأن العلم متى التقى بالتصوف والزهد والإرشاد ، كان ذلك خيرا على خير ، ونورا فوق نور .

وإذا تجاوزنا بعض دروس صغيرة لعلماء أو متعالمين . أو لبعض كبار الطلاب يدرسونها لمن هم أصغر منهم — وجدنا لكبار العلماء دروسا تعقد على غير عادة قبل نهاية السنة الدراسية بشهرين أو نحوهما .

فهذا الشيخ « الجندى » قد جلس فى غير مكانه المعروف ، بين المغرب والعشاء ، يدرس « السنوسية » فى العقائد والتوحيد وقد حوى درسه عدداً كبيراً من الطلاب ، والتف حوله مئات من طلاب الدرجتين الثالثة والثانية . وكذلك الشيخ « احمد الفقى » يدرس « الشنشورى » على متن « الرحبية » فى الفرائض . ولكن هذا الشيخ قد اضطر للبقاء فى منزله ، فكنا نذهب إليه حتى أتم الكتاب واحتفلنا بختامه على عادة الطلبة فى ختام الكتب[1] .

هذا ولعلك لحظت فى هذه الدروس كلها أن الشيخ أو المدرس يكون ثابتا فى مكانه بجوار عموده ، وعلى طلبته أن يختلفوا إليه فى كل درس ، بخلاف التعليم الحديث ، فإن الطلبة أو التلاميذ يثبتون

(١) أنظر الجدول صفحة ١٨٨ .

فى مكان خاص ، والشيوخ أو المدرسون يختلفون إليهم فى أوقات معينة محدودة .

أما الزمان فتابع لأوقات الصلوات الخمس مرتبط بها ، كما ارتبطت السنة الدراسية بالتاريخ الهجرى . فالإجازات الطويلة ، فى رجب وشعبان ورمضان ، والقصيرة فى العيدين ، وبعض أيام المواسم الدينية .

خاتمة :

ترى فى الدروس السابقة أن المواد الأساسية فى الجامع الأحمدى ، كانت : الأصول . الفقه . التوحيد . التفسير والحديث النحو والصرف . المعانى . البيان البديع . المنطق . وفيها كلها كان طالب شهادة « العالمية » يمتحن عند انتهائه من الدراسة ؛ وترى فى الجدول التالى توزيعها على الدرجات الثلاث . أما تلك العلوم الحديثة ، كالحساب والهندسة ، والجبر ، والطبيعة ، وتقويم البلدان والتاريخ والفلك ، والخط والإنشاء ، فقد كان بعضها قليل الحظ من الدراسة ، أو مهملا إهمالا تاما ، وبقى الحال كذلك حتى كانت سنة ١٨٩٦ م فأخذت تتسرب إلى الأزهر والجامع الأحمدى ، وتدرس بصفة اختيارية .

جدول بين المواد الأساسية التي كانت تدرس بالجامع الأحمدي وتوزيع كتبها على الدرجات الثلاث

الدرجة	أصول الفقه	الفقه على المذاهب: الشافعي	الفقه على المذاهب: المالكي	الفقه على المذاهب: الحنفي	النحو	التفسير والحديث	البلاغة المعاني البيان البديع	المنطق
الثالثة		شرح ابن قاسم حاشية البرماوي شرح الخطيب	الصفتي على العزبية الزرقاني شرح ابي الحسن على متن سالم الشرح الصغير	شرح مرافي الفلاح، الطائي على الكنز، شرح ملامسكين، حاشية ابي السعود	شرح الكفراوي، شرح الشيخ خالد، الأزهرية، القطر، الشذور		السمرقندية	شرح السلم
الثانية		الخرشي	الشرح الكبير على متن الأمام خليل	شرح العيني على الكنز الغرر على الدرر	شرح ابن عقيل الصبان على الاشموني	غرامي صحيح البيقونية في مصطلح الحديث	الجوهر المكنون	ايساغوجي
الأولى	شرح الجوامع	شرح المنهج	حاشية الدسوقي على الشرح الكبير	الهداية وشروحها	البخاري الجلالين وغيرها		شرح السمرقندي على التلخيص	القطب على الشمسية

طرق الدراسة

كانت الكتب الدراسية تتكون غالبا من « المتن » ، وهو مختصر موجز مدمج ، يشمل أصول العلم ومباحثه كلها تقريبا ، ومن « الشرح » وهو مطول المتن ، بحيث يكوّنان عبارة واحدة وإن انفصل المتن عن الشرح بأقواس . وعلى الشرح قد تكون « الحاشية » وهى تعليقات متقطعة تكتب غالباً فى « قولات » أو جمل تفسر عبارة الشارح بعد عنونتها بكلمة « قوله » .

وقد يعلق على الحاشية بقولات أخرى تسمى « تقريرا » وقد ترى للمتن الواحد عدة شروح ، وللشرح جملة حواش، وعلى الحاشية أكثر من تقرير .

وللمتون عندهم أهمية كبرى ، حتى إنهم ليستظهرونها قبل البدء فى دراستهامهما كانت طويلة ، ويقولون فى ذلك : من حفظ المتون حاز الفنون . وكذلك قولهم :

فليس بعلم ما حوى القمطر العلم حقا ما حواه الصدر

وقد يسهل حفظ المتون عن ظهر القلب أحيانا نظمها كما فى « ألفية ابن مالك » ، « وجوهرة التوحيد » و « الرحبية » وغيرها . وليس يبقى فى ذاكرة الطالب من العلم عادة ، غير هذه المتون فهى نصيبه من التحصيل .

ومن العلماء من يدرس لطلبته المتن فقط ، إذا كانوا مبتدئين

أو هو مع الشرح ، ومنهم من يجمع بين المتن والشرح والحاشية . وبقدر حرصهم على المتون وحفظها يزعمون أن : من تتبع الحواشي ، ما حواشي ، أى ماحوى شيئاً .

وعلى كل من الشيخ والطلبة إعداد الدرس قبل حضوره أوقراءته ، ويمتاز الشيخ فى إعداده الدرس باطلاعه على كثير من المراجع التى على هذا الكتاب الذى يقرؤه ، بل قد يطلع على غيرها من الكتب التى تتصل به ، وبخاصة إذا كان هو من الباحثين المجتهدين .

لهذا كله تكون الدراسة غالباً تفسير المتن وشرحه ، تفسيرا يشمل لفظهما كلمة كلمة ، ومعناهما إجمالا ، ثم قراءتهما وقراءة الحاشية مع شرح مايعترض من العبارات أو الألفاظ والمعانى . وإنك لتسمع الشيخ فى أثناء درسه يقرر أو يشرح ، مستعينا بما قرأ قبل الدرس فى الحواشي والتقريرات وغيرها من مطولات الكتب المتصلة بالموضوع . وقد يشارك بعض الطلاب الكبار شيوخهم فى الاطلاع على هذه الحواشى قبل حضور الدرس فيكون لهم معهم شأن فى المناقشة والاستجواب . وقد تجد بعض الطلاب حينما يستمع للدرس ، يكتب على « هامش » كتابه مما سمع من الشيخ ، كما أن بعض الشيوخ يحلى حواشى كتابه بملخصات

أو تعليقات من الكتب الأخرى ، ولذلك تزداد قيمة النسخ من الكتب بما عليها من هوامش وتعليقات خطّية .

وقد كان كثير من الكتب الدراسية فى ذلك العهد — مخطوطاً ، وقل ما كان منها مطبوعا بمطبعة الحجر أو المطبعة الأميرية وغيرها . وكان العلماء وكبار الطلاب يؤثرون الكتب الخطية لما يكون عليها من تعليقات للمؤلفين والمستنسخين والقارئين . ويختلف الشيوخ فى تدريسهم اختلافا بينا ، فمنهم من يعتمد على عقله ، ومنهم من توجد عنده مراجع نادرة خطية ليست عند غيره . ومنهم من يستشير أو يستثير الطلاب فى المناقشة ، ومنهم من يأبى على الطالب الكلام أو السؤال ، وقد يسبه ويلعن أباه ، ومنهم من كان يترك إعادة الشرح لبعض كبار الطلبة أو متنوريهم ، ليكون ذلك أقرب للفهم عند ضعاف الطلبة أو صغارهم ، ومنهم من كان يوجه سؤال السائل إلى غيره من الطلاب ليجيب عليه ، وتكون الكلمة الأخيرة للشيخ .

وكذلك كان الطلبة ؛ فمنهم من يستمع ولا يتكلم ، ومنهم الثرثار ، الذى يتكلم فى شرح كل عبارة أو يسأل حتى فى البديهيات ، ومنهم الجاهل العيي ، ومنهم المغرور ، ومنهم من يعنى بالتضييق على الشيخ فى شرحه وتقريره ؛ وإجمالا كان الطالب نسخة من الشيخ فيكون قصير الفكر ألكن اللسان ، إذا كان الشيخ كذلك .

وكنت ترى بعض الشيوخ يطيل فى الدرس ، فيسهب فى الشرح والتفسير ، محققا مدققا ، مبينا : لِمَ عبر بالواو ولم يعبر بالفاء ؟ وإن قيل كذا (اعتراضا) ، أجيب بكذا ؟ وماهو المراد من قوله كذا ؟ الخ ومن هنا نشأت عبارات اصطلاحية ، كقولهم « المراد يدفع الإيراد » أى أن بيان المقصود من العبارة يدفع الإيراد أى يرد الاعتراض عليها بأنها تؤدى غير مايفهم منها .

ويهمنى قبل استعراض محاسن ومثالب طريقة الدراسة بالجامع ، ان أشير إلى الاحتفالات التى كان يقوم بها الطلاب عند ختام الكتب ، فيفد الشيوخ من أصدقاء الشيخ ويجلسون فى حلقة الدرس مع الطلاب ، يستمعون لآخر درس فى الكتاب ويكون قصيرا عادة ، فإذا انتهى الشيخ من الدرس وقال « والله أعلم » عجّوا جميعا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالعبارة المأثورة « اللهم صل أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك نور الهدى محمد صلى الله عليه وسلم الخ » ثم تتلى بعض آى الذكر الحكيم ويسقون الشراب وتوزع الحلوى على الحاضرين والمدعوين ، وتلقى الخطب فى مدح المشايخ وغير ذلك [١] .

هذا مجمل وصف لطرق الدراسة بالجامع ، وقد ترى فيها مايأتى :

---

(١) راجع كتابى « مرقاة الخطابة العصرية » ترى فيها نماذج من هذه الخطب .

٦ — عدم مواظبة الطلبة على الحضور ، إذ لا رقيب عليهم.

٧ — سوء الترتيب فى عمل الطلبة ، فقد يهمل طالب ولا يحضر فى اليوم غير درسين ، فى حين ينهك آخر قواه بكثرة الدروس ، فلا يكفيه إلا خمسة دروس أو ستة فى اليوم . كما أنهم قد يتزاحمون على درس شيخ ، ويتفرقون أو ينصرفون عن آخر ربما كان أنفع من الأول ، كما أن بعض الشيوخ قد يمكث فى درسه أكثر من ساعتين فى حين يقطع آخر درسه فى أقل من ساعة ونصف ، فيعترى الطلبة الملل والسآمة فى الأول على حين يتوافر نشاطهم فى الدرس الثانى .

٨ — كان اختيار الشيخ موكولا إلى هوى الطلبة ، فقد يكون اختياره لقرابة فى البلد ، أو لصداقة أو استظراف ، أو لحب الفخفخة ، أو لطلب المنفعة الدنيوية عند فاسدى الطلبة ، وضحايا هذه الأسباب كثير . وربما كان هناك من الشيوخ من هو أنفع منه ، على أن الطلبة قد يعتمدون فى اختيارهم على ما قد يسمعون عنه ، أو على شيخ مهرج مضيع للوقت ، وينصرفون عن الشيخ المحقق المفيد .

٩ — سوء توزيع المواد فى الجامع الأحمدى ، جعل شيوخه وطلابه لا يعنون بالعلوم والكتب الفلسفية كثيرا . بخلاف طلاب وعلماء الأزهر الشريف ، فإنهم أسبق فى هذا . ولهذا

كان الفرق ظاهرا بين منطق علماء الأزهر وعلماء الجامع الأحمدى . وكذلك نجد شيوخ الأزهر يقرءون كثيرا من الكتب القديمة المحترمة المعقدة .

١٠ ـ ومن أهم مثالب طرق الدراسة بالجامع ، عدم التحصيل ، تحصيل المعلومات ، إلا ما حفظوه من المتون المنظومة وغير والمنظومة ، فهم لا يستظهرون إلا المتون ، وقد يسأل الشيخ أو الطالب الكبير عن مجمل بعض القواعد فيكون جوابه «نراجع» ويزعمون أن العلم فى السطور لا فى الصدور ، وقد بالغ طلبة وتلاميذ اليوم فى التحصيل ، صارفين النظر عن الفهم والبحث والتعمق ، فى فحص التراكيب واستطلاع أسرارها ، فيكون مبدؤهم « العلم فى الصدور لا فى السطور » .

أغراض الدراسة

تنقسم العلوم فى الدراسة الدينية إلى قسمين ، وسائل ومقاصد ؛ فالنحو والصرف وعلوم البلاغة والأصول والمنطق من الوسائل ، أما التفسير والحديث ، والتوحيد والفقه فهى المقاصد ؛ أى أن الغرض من دراسة الصنف الأول من العلوم التوسل بها لفهم العلوم الدينية . فمتى فُهم كتاب الله وحديث الرسول ، وألم الطالب باحكام الدين ، كان ذلك منتهى ما يرمى إليه ، فحاز السعادة فى الدارين . وكانت التربية الدينية أساس الثقافة فى العصور الأولى كما كانت مقياس الكفايات لدى الخلفاء والأمراء ، بعد أن صار للإسلام دولة وملك .

ولذلك كان أول الأغراض عند طلبة العلم فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، التفقه فى الدين والتقرب إلى الله تعالى بالانقطاع لطلب العلم .

وكان هدف الطالب المجد المواظب على حضور الدروس ، حصوله على شهادة العالمية ؛ إذ كان حاملها وهو المشهود له بالعلم أرقى الناس ، فى نظر أهل العصر من عامة الناس ،

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

كان العالم فى ذلك الوقت عنوان الكمال ، لعلمه بأحكام دينه ولعلمه بما يعلم . فكان فى التقرب إلى العلماء ، والاختلاط بهم ، ومجالستهم شرف لا يعادله شرف . كان والدى (رحمه الله) يحس بهذا ويعتقده ، وكان ندمه شديداً على أنه لم يفلح فى طلب العلم ، فصمم على أن يسير بابنائه فى هذه السبيل . وكان فى الناس من يهب أولاده لطلب العلم أو للسيد البدوى مثلا ، فلا يبيح لهم الانقطاع عنه . ولو بالحصول على مرتب لا يحلم به الناس حينئذ . وكنت لذلك ترى عدد الطلاب الذين يدرسون الفقه على المذهب الحنفى قليلا ، وهم الراغبون فى تولى مناصب القضاء . كما أن بعض الآباء كان يرى فى إلحاق ابنه بمدرسة « دار العلوم » أو « القضاء الشرعى » كارثة دينية ، لأن الاشتغال بالتدريس فى المدارس أو وظائف القضاء الشرعى ، عمل من أعمال الدنيا وليس كالاشتغال بمدارسة كتاب الله وسنة رسوله أو دراسة مسائل الدين .

ولكن لم يكد يمضى ربع القرن المذكور حتى اتجهت أنظار الطلبة إلى الدراسة الدنيوية ، وكادوا يبعدون عن الفكرة الدينية باللحاق بالمدارس السابقة .

وكان من مزايا طالب العلم فى ذلك الوقت إعفاء الطلاب والمدرسين من القرعة العسكرية ، ومن بعض أعمال السخرة

التى كانت مقررة على غيرهم . وكذلك كان بعض الطلبة يتمتع ببعض الرواتب ، كالخبز الجارى (الجراية) والسكن فى مساكن الطلبة (الخلوات) . وقراءة البخارى ، أو القراءة فى بعض المقارئ ، وشغل وظائف المأذونيـــة ، والتوظف فى وظائف صغيرة ، كالخطابة والإمامة فى بعض الزوايا والمساجد ونحوها .

وكان من السهل العثور على طلبة قضوا فى الجامع فوق العشرين سنة أو نحو الثلاثين ، وهم قانعون برغيفين ، قابعون بحجرة من الخلوات ، يدرسون بعض الكتب ، ويستعينون على الغربة بقروش تسد مصروفهم القليل الهين . وفى كل عام يكتبون أسماءهم فى جدول الممتحنين للعالمية وندر من حصل منهم عليها . أما من أقعده الجبن أو العجز ، أو من خانه الحظ ، أو من يئس من النجاح ، فإنه إما أن يبقى كذلك بالجامع حتى يأتيه أجله ، أو يسافر إلى قريته فيجلس فى مسجدها للتدريس والفتيا ، مكتفيا بما حصل من العلم للتنور والمعرفة فقط .

ولا يفوتنى أن أشير إلى رجل فى الجامع ، أحرى أن نسميه «فيلسوف الطلبة» أو «فيلسوف الجامع» وهو الشيخ ابراهيم . . . الذى انقطع لطلب العلم مدة طويلة . وكرس حياته لحفظ متن المنهج ، فكنت تسمعه يقرأ فيه وهو يكرر الجملة مرارا ، متأتئا مفأفئا ، فلا هو يحافظ شيئا ، ولا هو بتارك القراءة والتأتأة

والفأفاة . وقد ذكرت أنه « فيلسوف » لأنه كان يحيا حياة الفلاسفة . فهو يحمل جوالقه (شواله) على ظهره ، وفيه كل متاعه ، والله أعلم به ، وقد ربط به إبريقا وطسيتا من الصفيح . وحمل فى يده متن المنهج ذاهبا آيبا من دورة المياه إلى الجامع . وقد بقى من بصره شعاع ضئيل ، تزاحمه الدموع المدرارة ، وكان أمره مشهوراً ، ولست أدرى كيف قضى بقية حياته ، بعد أن هاجم نظام سنة ١٣٢٦هـ عشه ، بمكانسه وفراجينه . وكل ما فى الأمر أنه قضى حياته فى طلب العلم ، منقطعا عن الدنيا . رحمه الله وألحقنا به فى جنات الخلد . إنه سميع مجيب ؛ آمين .

الامتحانات بالجامع

١ — أعطانى والدى « قطعة بخمسة » وطلب إلى أن أتوجه إلى العمدة لاستخراج شهادة ميلادى قبيل السفر إلى طنطا . وبعد أن سلمته خمسة القروش وهى إتاوة كانت معروفة ، كتب الشهادة التالية « نشهد نحن الموقعين عليه أدناه عمدة ومشايخ كفر هورين مركز السنطة غربية أن الشيخ محمد بن الشيخ سيد احمد بن المرحوم محمد عبد الجواد من الناحية بلدنا ومن مواليد ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م ومن حملة القرآن الكريم . وتحررت له هذه الشهادة منا بذلك » .

العمدة شيخ شيخ

فبراير سنة ١٨٩٩

احتفظت بهذه الشهادة ، حتى سافرنا ومكثنا بالجامع أسبوعا ، ثم كتبنا انتسابا قدمناه لشيخ الغربية ، ومعه شهادة الميلاد وهذا نصه :

فضيلتلو شيخ الغربية

مقدمه لفضيلتكم محمد عبـــد الجواد بن الشيخ سيد أحمد ابن المرحوم محمد من كفر هورين مركز السنطة غربية وهو أنى أرغب قيد اسمى ضمن طلبة الجامع الأحمدى على مذهب الإمام الشافعى وجارى حضورى شرح ابن قاسم على الشيخ ابراهيم نصار والكفراوى على الشيخ محمد الحبيشى لازلتم ملجأ للقاصدين ؟

محمد عبد الجواد

توجهنا إلى منزل السيد محمد عبد الرحيم شيخ الغربية ، وكنت أنا ومقودى الشيخ « ابو الفتوح » وكان جريئا لسابق اختلاطه ولكبر سنه ، فلما تقدمنا للنقيب طلبة مستجدين ، طلبوا إلى قائدى قراءة « عشر » فقرأ جملة آيات بصوت جهورى « على القاعد » أى مع التجويد والترتيل والنغم ، وبشىء من القراءات السبع ، فلما فرغ من القراءة قالوا له « فتح الله عليك ! » ، ومعنى هذا أنه ناجح ، فقيد اسمه فى سجلات المشيخة من تاريخ سنة ١٣١٦ هـ .

جاء دورى فى الامتحان وكنت صبيا تقتحمنى العين ، بخلاف زميلى فكان شيخا معمما وفتى كبيرا ، فطلب إلى النقيب أن أقرأ من أول الربع « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى الآيات » فى سورة لقمان ، فبدأت أقرأ الآية متعثرا ، أسقط كلمة فى كل مرة .

وهو يردنى فى كل عثرة حتى قرأت الآية أربع مرات على الوجه الآتى :

ا — ومن يسلم . . . . إلى الله وهو محسن الخ

ب — ومن يسلم وجهه . . . . وهو محسن الخ

ح — ومن يسلم وجهه إلى الله . . . فقد استمسك بالعروة الوثقى .

د — ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى .

وأخيرا استوقفنى وأخبرنى أنى صغير . لأنى دون ١٤ سنة ، ويحسن أن أنتظر سنتين ، ورد الىَّ اوراقى فاحتفظت بها إلى سنة ١٣١٨ هـ حين قُبل انتسابى . لم يخبرنى أحد أنى فشلت فى الامتحان ، وأن انتسابى لم يقبل يومها لعدم حفظى القرآن ومكثت سنتين أحضر فى الجامع بدون قيد اسمى ، ولكنى أظن أن رفض انتسابى كان لذلك ، ولو أن سنى كانت صغيرة ، ولو علم والدى ذلك لأصابنى منه ما أصابنى .

هكذا كان أول امتحان بالجامع ، وهو امتحان الانتساب أو تقييد الاسم بالسجل فيه . وهكذا على ماأظن ـ كان رسوبى أو إخفاقى فى أول اختبار أديته ، على الرغم من أن والدى كان يشجعنى كثيرا بإقحامى فى المجالس العامة ، ويلزمنى قراءة ربع فى مجتمعات العيد فى الدوار ، ويجيزنى على ذلك بنصف قرش يؤديه أو لا يؤديه احيانا ! وأشهد الله أنى كنت أحفظ القرآن جيداً ، وهذه السورة خاصة ، ولكن نجاح الطالب ليس فى يده !

وعلى أن أسعى وليـــس على إدراك النجاح

وقد يكون فى ذلك إخلاف لظن الوالد لشدة حرصه على تربية ولده بطريق خاصة ، ولو لم تساعد المقادير ؛ ولكن ثقتى بإيمان والدى لاتبرر هذا الاتهام عندى .

٢ ـــ كان طلاب العلم ـ كحفظة القرآن ـ يعفون من الخدمة

العسكرية، على شريطة أن يكونوا قد قضوا سنتين مقيدين بالجامع، وأن يؤدوا امتحانا أمام لجنة المعافاة بالمشيخة .

جاءت سنة ١٩٠٥ فتقدمت للمشيخة «بأورنيك» معافاة لطلب العلم ، ومثلت أمام اللجنة المكونة من شيخ الجامع ، ومندوب القرعة (وهو أفندى) وبعض العلماء ، فسألنى الشيخ عن الكتب التى أحضرها ، وطلب الىّ شرح « فصل والمسح على الخفين جائز » من متن أبى شجاع ، فأخذت أشرح مستدلا بما أحفظ وأفهم من متن الألفية ، فدهش الشيخ والمندوب ، ونجحت فى الامتحان وأعفيت من القرعة العسكرية . على أن المقادير لم تترك هذه المعافاة حرة، بل حاطتها بحوادث بعضها يسير وبعضها عسير، فقد ظهر أنى طلبت المعافاة قبل الميعاد بسنة ، ولكن هذا لم يمنعها فى سنة ١٩٠٦ غير أن أحداثا حدثت بالجامع سنة ١٩٠٩ أفسدت أو الغت هذه المعافاه فدفعت البدل النقدى وهو عشرون جنيها مصريا ، كما سترى .

٣ — أما الصنف الثالث من الامتحان فهو « للترقية » أى نقل الطالب من الدرجة الثالثة إلى الثانية ، وكان ذلك فى شرح ابن عقيل ، وقد نجحت فيه سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م بعد الهروب منه كما سترى فى الفصل التالى ، كذلك الترقية من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى، وكان فى شرح السعد على التخليص وقد مررت فيه بسلام سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م . وكان امتحان الترقية

ضروريا للطالب المواظب حتى يستطيع دخول امتحان «العالمية» وهو الامتحان النهائى .

٤ — أما امتحان «العالمية» فى أيامنا فقد كان شفويا فقط، ولكنا نسمع قبل ذلك أن الطالب كان يستمر فى طلب العلم وحضور المذهب وإعادة كتبه ، « حتى إذا أنس من نفسه علما كافيا وملكة يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس للتدريس ، حيث يجد مكانا خاليا ، وعرض نفسه على الطلبة ، فكانوا إذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، وإذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه ، وتلك هى شهادة العالمية التى كان العلماء يأخذونها» « تقويم الحكومة سنة ١٩٣٩ ص ٧٠

وقد خطا هذا النظام خطوة أخرى ، إذ كان الطالب الذى يريد العالمية ، يجلس فى درس يضم شتات العلماء ، ويأخذ هذا الشيخ فى التدريس للطلبة ، فيشترك الشيوخ الحاضرون فى المناقشة والمساءلة ، حتى إذا رأوا منه استعدادا وكفاية ، وكاد ينتهى من درسه ، قام إليه شيخ العلماء قائلا : « والله أعلم » ثم سلموا عليه وهنئوه واستمر مدرسا .

ونحن الآن حوالى سنة ١٩٠٠ م كان « طالب العالمية » يؤدى امتحاناً شفويا فى الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق ، أمام لجنة بعد «تعيين» أجزاء من الكتب يدرسها قبل الامتحان

بأسبوع، فيبسط أمامهاما أمكنه تحصيله ، وهم يناقشونه ويراجعونه ويسألونه فى شتى العلوم ، حتى إذا وجدوا منه استعداداً وكفاية منح « شهادة العالمية » .

وعلى الرغم من وجود ألفى طالب بالجامع ، كان عدد المتقدمين لهذا الامتحان فى كل عام قليلا ، والناجحون فيه قلة لا تتجاوز أصابع اليـــدين ، لأن أكثرية الطلبة لم يكن لديهم مايحملهم على الانقطاع لطلب العلم والاشتغال بالدرس . وطالما اتهم الراسبون لجان الامتحان بأقسى التهم وأشنعها ، ولا يحمد السوق إلا من ربح .

٥ — ولا يفوتنى أن أذكر خامس امتحان أديته بالجامع قبل خروجى منه بأيام قلائل ، فقد جاء نظام سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م وسار الجامع سَنة دراسية على سُنة دراسية جديدة ، وأعلنت المشيخة امتحان مسابقة يكون تحريريا للحصول على « جراية » كبيرة قدرها ثلاثة أرباع أقة فى اليوم . فتقدمت لهذا الامتحان مع من تقدم . ولخبرتى بالإجابات التحريرية سبقت الطلبة جميعا وصرفت لى « الجرايه » أياما ثم انتزعها من يدى المرحوم الشيخ مصطفى الخشاب « المشد » يوم الفتنة كما سترى .

فرار وتكفير عنه

ليس غريبا أن يغيب طالب عن امتحانه ، وأن يؤديه فى آخر العام إذا لم يؤده أوله ! ولكن الظاهر أن كل حرص يوصل إلى الحرمان ، وأن شدته تأتى بعكس ما كان منتظرا . والدى يعد الأيام والشهور ، بل الساعات والدقائق ، للزمن الذى أقضيه فى الجامع ، انتظارا للفراغ منه والحصول على مطلوبه ، وهو «شهادة العالمية» ! فتركى امتحان الدرجة الثانية اعتبر فرارا من الميدان وهربا غير شريف ، ولا بد أن تقوم الدنيا من أجله وتقعد ، ولا بد من التكفير عن هذا الجرم ! نعم هربت من امتحان لا عن قصد ، وظللت أكفر عن هذه الهفوة ثلاثا وعشرين سنة ، أديت خلالها ثلاثين امتحانا ، آخرها امتحان «ليسانس القوانين» فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٢٧ م .

قضينا نحن الرفاق الأربعة بالجامع ست سنوات ، ونحن من طلاب الدرجة الثالثة ، لا نأخذ رغيفا جاريا (جراية) ولا نسكن خلوة ، ولا يضاعف نصيبنا فى الصندوق . وبعد قليل من أوائل العام الدراسى ٢١ — ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م أعلنت المشيخة امتحان الترقية للدرجة الثانية ، وعلى الطالب الراغب فى ذلك أن يقدم

شهادة بحضوره شرح « الشذور » على أحد الشيوخ ، وأن يكون فى درس « ابن عقيل » ، ثم يؤدى فيه امتحانا . نحن نحضر ابن عقيل حقا ، وقد حضرنا الشذور من قبل ، ولكن على من ؟ هرع طلاب امتحان الدرجة الثانية إلى المشيخة ، لتقديم الشهادة اللازمة ، وبالبحث تبين أن الشيخ الوحيد الذى قرأ شرح الشذور فى السنة الفائتة ، كان الشيخ « على النمر » فوقّع مالا يقل عن نصف الف شهادة ، مع أن درسه مشهور بأن عدد طلابه لم يكن يصل إلى العشرين !

أعددنا الأوراق اللازمة ، ومكثنا ننتظر النداء على أسمائنا للامتحان ، لأن الطلب على حسب ترتيب السنوات ، وست سنوات فى الدرجة الثالثة غريبة حقا ، فهناك من قضوا فيها ١٥ سنة أو أكثر !

أخذ الرعب يدب فى نفوس المنتظرين لما سمعوا من صعوبة الأسئلة وكثرة شهادات الشيخ « على النمر » فولوا الأدبار وتركوا الامتحان إلا قليلا منهم . أما نحن الأربعة فقد ترددنا بين الدخول وعدمه ! وأراد الله أن تتخلل أيام الامتحان بعض أيام المواسم فأرسل أبى الىّ الحمارة ، يستقدمنى إلى البلد ، لقضاء الموسم هناك على غير عادة !! انقسمنا فى الرأى فريقين ، وحبّب الىّ كبير الفريق الثانى ترك الامتحان والسفر إلى البلد ، فالحمارة فى انتظارى وبقى

الاثنان الآخران فى انتظار الامتحان ، وركبنا الحمارة إلى البلد باسم الشيطان مجراها . ليت الرحمة لم تصل إلى قلب أبى فى هذه المرة ! ليته كان قاسيا ، كما اعتاد ، فى غير أوقات القسوة، فتركنى أحضر ماشيا ، أو لا أحضر كلية ، ولكن هى الأقدار تجرى كما شاء مجريها ! وصلنا البلد ، وبتنا ليلة قبل الموسم وفى آخر النهار وصل الفريق الثانى يحمل من أخباره السارة ، ما كان علينا وعلى أبى خاصة كالصاعقة ! فما كدنا نغادر طنطا حتى وصل الامتحان إلى أسماعنا ، فدخل الاثنان ونجحا ، وأخذا يذكران سهولة الامتحان ، ويسرد الشيخ أبو الفتوح فى لباقة ومرح ، ما كان بينه وبين الشيوخ من نكت واستحسان .

كان أسف أبى مزدوجا، لأنه كان يريدنى أن أدخل الامتحان ولو لم أنجح ، لكى أعتاد مواجهة العلماء فى الامتحان الأكبر ، امتحان العالمية، على أنه صرح بأنى لو دخلت الامتحان لنجحت ، لأنه يعتقد فى نفسه — وإن كان يظهر لى دائما خلاف ذلك — أنى أنا أعلم هؤلاء وأذكاهم ، بما أقمت على هـــذا من أدلة ، فى اجتماعات ومناسبات ومحاجات عدة .

حضر الشيخ أبو الفتوح فى الصباح إلى دارنا وجلسنا نفطر ، فكان يلتهم الأكل التهاما لسروره ، وأنا أتجرعه كالسم ، لما أسمع من والدى « عند الامتحان يكرم المرء أو يضرب بالصرمة » .

عدنا إلى الجامع ، وصرف للناجحين راتبهم من الخبز وهو رغيفان ، وكان والدى يتشوق إلى مثل هذا لأنه أول خطوة نحو العالمية ، انتهت العمالة ، وجاءت عطلة الصيف . لا تسل كيف قضيت عطلة الصيف فى هذا العام فكان كل غروب شمس يذكرنى بالامتحان ، فأتنهد ، وأقف ناظرا إلى الشمس فى لونها المصفر ، كأنما أتعجل دورة الفلك ، حتى يجىء الامتحان الثانى قبيل آخر العام . . لم يفت أبى فرصة كان يندد بى فيها ، حتى إنه كان يخاطب بنتى الصغيرة ويدعوها بالهرابة و « إياك أعنى واسمعى ياجارة » ، حتى انتهت الإجازة وعدنا إلى العمالة . لم نمكث فى الجامع طويلا حتى جاء الامتحان الثانى قبيل المسامحة ، وكان سهلا يسيرا ، فكتبت إلى والدى خطابا فى ٩ من شعبان سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤م الساعه ٤ عربى نهارا أخبره فيه بأنه « حصل امتحان للدرجة الثانية فى هذا اليوم فأجبت أنا ومن معى » . وإنا وإن فاتنا الخبز الجارى (الجراية) طول العام ، فقد تلاقينا جميعا عند القبض من الصندوق ، فقد كان نصيبنا جميعا مضاعفا لأنا صرنا من طلاب الدرجة الثانية .

حرمان ورزق

كانت « عمالة » طويلة . عاقبنى أبى فيها بحرمانى النقود . لفرارى من الامتحان ! ما ذا أعمـــل ؟! ومن أين أنفق على ما أشترى من أدام ؟! نعم حملت من الزاد خبزاً وفرنياً وجبنا وغيرها ، و لـكن كيف أشترى حتى الفجل والـكراث ؟!

هذه قلادة امرأتى فيها أربعون قطعة ذهبية، معلقة بخيط رفيق ومن السهل سقوط واحدة منها وقيمتها أكثر من نصف دينار !! لم أعتد السرقة ، مهما اشتدت الحاجة فعلى بركة الله أعود إلى الجامع بشىء يسير من النقود أدفع به الحاجة ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ! قد عودنى والدى الاقتراض من إخوانى ، لأنه لم يكن يعطينى الـكفاية ، ولـكن ليس فى الاستطاعة أن أقترض ما يسد حاجتى بضعة أشهر ، فلأسلم الأمر لله !

قمت صباح يوم مبكراً ، وإذا بى أرى قطعة نصف قرش أمام منزل الشيخ الظواهرى على الأرض ، فالتقطتها ، وشجعنى وجودها على التحـديق فى الأرض ، فإذا بثانية وثالثة ، حتى اكتملت سبع قطع ، أو ثلاثة قروش ونصف قرش !

الحمد لله ! يرزقنى من حيث لا أحتسب !!

خرجت يوما من باب الرخام ، وألقيت حذائى على الأرض خارج سياجه ، ثم هممت بانتعاله ، فإذا بين فرديه كتلة مرصوصة من النقود ، فانحنيت عليها وأخذتها . ويظهر أنها كانت لسائل أو سائلة اعتادت الجلوس بجانب سياج الباب ، وهى لقطة أرانى فى هذه الآونة أستحقها ، فضربت بما فى باب « اللقطة » من الأحكام عرض الحائط !

فرغت النقود من يدى ذات ليلة فدُرت فى الجامع ، فوقع بصرى على قرش كامل ، فحمدت الله على مصروف هذه الليلة . ودُرت ليلة أخرى علنى أجد الراتب فلم يصادفنى ، فأعدت الكرة ثانية وثالثة ، حتى أحسست بضرورة الذهاب إلى المراحيض ، فقصدت إليها ووقفت أنتظر خلو واحد منها ، وإذا ببقعة بيضاء تلمع فى الأرض على ضوء القناديل الضعيف ، حركتها برجلى فوجدتها قطعة ذات قرشين ، «فقضيت حاجتى» ثم عدت لأقضى حاجى من الأكل والشرب .

أعوزتنى النقود يوما فلجأت إلى مقام السيد ، ووقفت أمام باب المقصورة أعاتبه ، فمر فلاح يسقط بعض النقود فى صندوق النذور ، وتأكيداً لوضعها كان يخبط فتحة الصندوق بكفه لكى تسقط داخله تماما ، فلما رفع يده تخلف عنها نصف قرش فأخذته ،

لأن بعض أساتذتنا كان يزعم أن ما فى صندوق النذور مال مباح ، يحل لمن يحصل عليه !

طالت العمالة ، وعلى الرغم من كثرة اللقطة ، أصبحت فى حاجة إلى النقود بصفة منتظمة ، فماذا أفعـــل ؟ هذا الطالب م . زايد ، وذاك م . نصر ، يسردان كلاما عن المقابر وزائريها صباح الجمعة ، وقد اعتادا ارتيادها ! هذا رزق حلال ! وأحق ما اتخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى ! إنهم يحصلون فى اليوم على بضعة فلوس وشىء من الفاكهة الحاضرة ، التى ليست فى متناول معظم المجاورين ! وكذلك يحصلون على عدد من الرغفان ، ولكنى لست فى حاجة إلى الخبز ، وهناك فى المقابر من يتجر بالخبز ! فلأذهب قبل أو بعد صلاة الفجر كل يوم جمعة ، وليس عندنا عمل أو دروس فى هذا الوقت ! مرحبا بهذا الرزق الجديد ، وإن كنت قد عُيرت به من بعض الأقارب الحاسدين !

ولست أدرى كيف علمت والدتى ، رحمها الله أنى ما كنت أجيد هذه الصناعة ، وأن أصحابها كانوا يمتازون بالأصوات العالية ، والختامات الممتازة المختارة !

انتهت العمالة على هذه الحال ، وخُتمت السنة على ما رأيت بنجاحنا فى الامتحان ، وإن فاتتنا « الجراية » طول العام ، ولكن قبضنا حقنا فى الصندوق مضاعفا « درجة ثانية » ، وكان رواج

فى النقد ، فليس علىّ قروض تذكر ، وادخرت مما معى ثمن طربوش للعمامة ، اشتريته كما كان يفعل غيرى من المجاورين ، أقيم البرهان لوالدى على ما أصبت من نجاح وغنى ، ولكن والدى عنفنى على شراء هذا الصنف الرخيص الذى لم أعتد لبسه ، بخلاف ما كان يشتريه هو لى ، فبعته نسيئة لصديق الناجح الثانى.

جاء العام الثانى ، وقيدت أسماؤنا على « جراية » بعض الأوقاف ، وأخذنا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر نسأل عنها ، فلم تصرف لنا ، لأن المشيخة كانت تقاضى أصحاب الوقف الذى تتبعه هذه « الجراية » ! وبعد سنتين من الانتظار أراد الله أن يحظى أبى بعدة رغفان منها مع شىء من حلوى الطحينة ، وهى أحب شىء إليه — كان — وأمر طالما تمناه !

لم تطل مدتى فى الدرجة الثانية ، فدخلت امتحان الدرجة الأولى مختاراً ، وسبقت كل الرفاق ، وأضفت إلى ذلك أن دخلت امتحان مسابقة « تحريريا » بعد النظام للحصول على « جراية » فخمة مقدارها ثلاثة أرباع الأقة يوميا ، وهى ضعف الأولى فى المقدار ، ولكن لم أتمتع بها إلا قليلا (كما سبق القول فى صفحة ٢٠٤) . انقض علىّ جندى المشيخة وانتزعها من بين يدى عنوة ، واقتادنى للإدارة فى المشيخة ، حيث علا صوت الفتنة فى الجامع على ما سأحدثك به بعد قليل !

الشيخ أحمد على الشرقاوى

(توفى رحمه الله فى يونيو سنة ١٩٣٨)

عنوان لباب ، جدير بأن يكون عنوانا لكتاب ، ولكن شيء خير من لا شيء .

قائد النهضة العلمية المدنية الحديثة بهورين (قرية)
وما جاورها من القرى

رحلنا صيفا إلى هورين مرة ثانية . ويممنا مسجد « سيدى حسين المغربى » وهو مسجد من المساجد الكبيرة بالقرى ، وأكبر مسجد فى هورين . وضريح وليه أنخم الأضرحة الكثيرة المنتشرة فيها ، ويقال إن بها أربعين ولياً ، بعضهم له مسجد ، وكثير فى المقابر القديمة ، وآخر داخل البلد أو خارجها . ويظهر أن هورين كانت محطه رحال كثير من هؤلاء الأولياء ، ومن بينهم سيدى « حموده » المغربى ، وأذكر أن جدتى رحمها الله كانت تستغيث به فى الملمات ، وأنه كان له « رزقة » ورثنا منها نصيبا بعناه لآخرين ، ولكن لم أشتغل ، لا بتحقيق نسبتنا إليه ، ولا بمكان هذه الرزقة .

وجدنا مسجد سيدى حسين [1] سنة ١٩٠٣ معهداً للدراسة العربية ، يجلس فيه الطلاب لحفظ بعض المتون ، وحضور بعض الدروس وكان المدرس الأول فيه ، بل قل مديره ، هو المرحوم الشيخ « احمد الشرقاوى » . هذا الاسم رمز النهضة العلمية فى هورين ، هو باعثها ومحييـــا ، وهو موجهها الاتجاه الحديث الذى اتجهته فى الثلث الأول من القرن العشرين . نعم كان بالقرية

---

(١) سيدى حسين المغربى أحد الأشراف الحسينيين الذين نزحوا الى هورين فى زمن الظاهر بيبرس . وذريته الشرفاء تعرف باسمهم الخطة التى بها المسجد وقد جدد بناؤه سنة ١٢٨٣هـ ويحفظ له الناس تاريخا بالجمل « رشرش فرج » محمد سليمان صالح .

ثلاثة من خريجى دار العلوم ، وهم المرحومون المشايخ « محمود ضيف بك » و « اسماعيل خليل » و « عبد الله خليل » ولكن الأولين لم يقيما بها ؛ وكذلك كان هناك شيخ من كبار العلماء بالأزهر ، هو المغفور له الشيخ محمد ماضى الرخاوى ، وكان من خيار العلماء الصالحين ، ومن أسرة كريمة ، وكان لوالدى به صلة متينة من يوم كان مجاوراً بالأزهر ، وظلت مدة طويلة ، كان من مظاهرها زيارتنا كل صيف ، وقد توثقت هذه الصلة لما تقدمت فى طلب العلم .

لم يكن هذا الشيخ يهتم إلا بالناحية الدينية من التعليم ، لأنه مدرس بالأزهر ، وكان علماء الأزهر وطلابه يعتقدون فى مثل طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى بعد ذلك ، وفى المشتغلين بالعلوم الحديثة عامة — اعتقاداً سيئا ، وينسبون الإلحاد إلى طلبة دار العلوم خاصة .

وكان على الضد من ذلك الشيخ « أحمد الشرقاوى » لأنه كان ذكيا ، وعلى جانب من العلم عظيم ، ولكنه لم يحظ بنيل الشهادة الرسمية « شهادة العالمية » ، وكان بين الشيخين منافرة ومنافسة مستورة ، كما بين مادتى العلوم الدينية والعلوم الحديثة ، أو كالتى بين طالب أزهرى وآخر من دار العلوم. ويعزون بعض أسباب هذه المنافسة إلى مكان الأسرتين ، وإلى مايزعمون من عدم

مساعدة الشيخ الرخاوى للشيخ الشرقاوى فى الحصول على «شهادة العالمية» . بل قد يذهبون إلى أبعد من ذلك ، إلى أنه كان يقف فى طريق نجاحه ، حتى تولدت البغضاء بين الاثنين ، واتسعت الهوة بين الشيخين ، وبعدت الشقة بين المذهبين .

لهذا عمد الشيخ الشرقاوى، وقد يئس من حصوله على شهادة العالمية ، إلى سلوك طريق فى التعليم خاصة ، غير الطريق التى كان يسلكها العلماء فى الأزهر ، فالكتاب الذى يقرءونه فى سنة طويلة ، يتمه فى شهرين ، تاركا التمحكات اللفظية إلى جوهر المعنى ولب الموضوع ؛ فيلخص الدرس، ويفسر المتن بلا كلفة ولا مشقة ، ثم يعود فيقرأ الشرح مع التعليق على ما يراه فى حاجة إليه ؛ وإجمالا كان يسهل وييسر سبيل العلم إلى المشتغلين بتحصيله .

وقد توافد الطلاب من القرى حول هورين ، فكثر عددهم فى الجامع ، واكتفى الشيخ بالتدريس لكبار الطلبة ، وعهد إلى بعض هؤلاء الطلاب النابهين بدراسة كتب صغيرة لصغار الطلبة والمستجدين ، وبهذه الطريقة أسس معهدا صيفيا كان على رأسه يدير دفته ، وكل من فيه متطوعون . فنشطت الحركة العلمية نشاطا كبيرا فى هذه القرية ، والقرى حولها من « كفرهورين » و « كفر عليم » و « حنون » و « كفر أكلا الباب » حتى وفد إليه من طنطا أحد كبار الموظفين الآن (الأستاذ أحمد خلف الله

المراقب المساعد لمنطقة غرب الدلتا) وبعض أقارب الشيخ من مديرية الشرقية ، فكان مسجد سيدى حسين عامرا فى كل صيف كأحسن معهد دينى علمى رسمى .

المرحوم الشيخ أحمد الشرقاوى

مع هيئة الطلبة الجوادية

فى صيف سنة ١٩٣٦ قام أعضاء « هيئة الطلبة الجوادية » برحلة لهم إلى هورين لزيارة الشيخ عقب شفائه . وقد أخذت لهم هذه الصوره قبيل الغروب وهم بملابس الاجازة فى الريف .

ومجرد ذكر اسم الشيخ الشرقاوى يدعو للإطراق والتفكير فى ضروب تشجيع المتعلمين فى قريته، وإن كانت الصلة بين ذلك وبين موضوعى قد ترى بعيدة ! لم يكتف الشيخ الشرقاوى بشغل الطلاب فى الصيف ، بل شجع كثيرا منهم على اللحاق بمدرستى دار العلوم والقضاة الشرعى ، والضعاف منهم بمدارس

المعلمين الأولية فى أنحاء القطر المختلفة . وبذلك انتشرت الثقافات الحديثة ، وفتح أبواب الرزق فى وجوههم . ولم يقتصر على هذا ، بل كان يذهب إلى كل والدة تضع ذكرا فى بلده ، فيعاهدها على أن تهب ابنها للعلم ، وكان يساعد الفقراء والمحتاجين منهم فى رحلته إلى الأزهر أو إلى المدارس ، حتى إنه كان يتخذ بمصر سكنا له وللطلاب معه ، يكون فى « رَبع » أو فى منزل من منازل المماليك ذات الردهات الواسعة ، وينظم فى هذا المسكن إدارة لمعيشة الطلاب ودراستهم وامتحانهم ونومهم ، إدارة دقيقة كأنها مدرسة داخلية غاية فى النظام .

كان من أثر هذه الرحلة أن تغيرت طريق دراستى ، وازداد ميلى للعلوم الحديثة ، ثم دخولى دار العلوم عن غير قصد ، وعلى غير رغبة من والدى ، رغم تمسكه بأن أحصل على « شهادة العالمية » حتى أعوض مافقده هو فى حياته من اتمام دراسته بالأزهر ! كان الشيخ الشرقاوى شديد الرغبة فى اتجاهى نحو دار العلوم ، وكان والدى شديد الإباء لذلك ، بحجة أنه لايريد من العلم غير طريق الله ، وأنه لم يرض بحضورى الفقه على المذهب الحنفى لئلا تكون هناك شائبة فى أنه يميل لأن أكون قاضيا ، فما بال دار العلوم وهى بعيدة كل البعد عن العلوم الدينية والتعليم الدينى ! ؟

طالما قامت معارك بين الشيخ وإخوانى من طلاب دار العلوم من ناحية ، ووالدى من ناحية أخرى ، فهم يحاجّونه فى الخسارة التى تلحقنى من بقائى بين علماء الأزهر، الذين لم يلموا بما كنت أحصله من تلك العلوم الحديثة ! وكانت تزيد حسرتهم ويشتد أسفهم عندما يطلعون على ما أنشأته من مقالات ومقامات

بعد عشرين سنة (اغسطس ١٩٢٨)

وهو يأبى أن يرانى أمشى بحذائى على الحصير ، كما يفعل طلبة دار العلوم ؛ ولكن أراد الله ولا راد لقضائه أن ألحق بدار العلوم بعد طردى من الجامع الأحمدى على الوجه الذى ستراه بعد ، وأن يرانى أدوس بحذائى أفخم البسط العجمية والقبعة على رأسى مكان العمامة . (١٩٢٨ م)

مأذون

كان والدى رحمه الله مأذون الشرع الشريف بقريتنا ، وقد ورث المأذونية عن أبيه عن جده ، الذى كان نائب الشرع الشريف بكفر هورين غربية .

اختلف أبى وقاضى المركز على مسألة دعت لاستقالته ؛ والذى سمعته من والدى أنه استقال على إثر خلاف بينه وبين القاضى أدى إلى قول والدى له : إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع ! أما تفصيل الموضوع فيظهر أن والدى تسرع فى اعذار شخص بالحضور إلى المحكمة على الطريقة المألوفة إذ ذاك . فكان الإعذار لحضور جلسات المحاكم الشرعية على يد المأذون ، وكان فى ثلاث صور ، يذهب المأذون لمنزل المعذر ثلاثة أيام ، ويقف ببابه يناديه بما معناه : يا فلان ابن فلان ابن فلان ! عليك التوجه لمجلس القاضى فى الساعة كذا من يوم كذا لسماع الحكم عليك فى قضية كذا ، وإن لم تحضر يوكل القاضى من ينوب عنك فى سماع الدعوى !

والظاهر أن والدى أرسل الإعلانات قبل الميعاد ، فاختلف هو والقاضى واستقال .

كنت أنا فى ذلك الحين قضيت بالجامع ست سنوات ،

وأصبحت من أهل العلم ، ولا مانع من أن أكون بدل والدى « مأذونا » والقرية مصممة على هذا ، وإن أباه أبى !

غير أنه اضطر للنزول على إرادتهم وقدم لى طلبا ، وتقرر امتحانى لذلك .

كان الامتحان سهلا ، والنتيجة مضمونة ، ما دام هناك جنيهان ذهبيان ! فامتحنت مع آخر من قرية أحد الأعيان الذى شفع له فى النجاح ، فنجحنا وتسلمنا دفاتر المأذونية ، وعدت للبلد متأبطا هذه الدفاتر ، مأذوناً بعقد الزواج وإثبات الطلاق . لم يكن لى من المأذونية — فى الواقع — غير خاتم يمهر به والدى الوثائق التى خلا معظمها حتى من توقيع الشهود ، وكانت موضع ملاحظة عند تسليم بعض الدفاتر للمحكمة .

والله يعلم أنى لم أجلس لعقد عقد مدة السنوات الأربع (١٩٠٥ — ١٩٠٩) التى قضيتها فيها غير مرتين انتهت إحداهما بفض المجتمع بعد الفشل فى الزواج ، الذى أقيمت له حفلة عظيمة ، ولو تم لنالنى منه زوج من الجنيهات ؛ أما الثانية فكان والدى غائبا ، ودعيت لزواج بنت فقيرة ، وحاولوا أن يعطونى ريالا ، ولكنى رفضته بإباء ، لما تلقيته عمليا عن والدى فى أثناء عمله ، من شهامته وعدم الطمع فى مال المحتاجين ؛ فعقدت العقد وحُملت العروس إلى زوجها فى القرية المجاورة .

قُبلت طالبا فى دار العلوم سنة ١٩٠٩ وكان علىّ أن أستقيل ، فلأحمل دفاترى إلى المحكمة ولأذهب ماشيا على القدم إلى المركز — وبينه وبين قريتنا نحو ٨ أميال — لتسليمها . وعلىّ أن أقابل حضرة القاضى (وهو غير الذى امتحننى) للمرة الثانية ، لأقدم له الاستقالة بنفسى ، وكانت دهشته عظيمة ، حينما علم بدخولى دار العلوم . ودعالى بخير ! ولعلك فى شوق إلى معرفة سبب المقابلة فى المرة الأولى ! كنت أمامه فى تحقيق لاستجوابى عن امرأة مطلقة رُدت إلى زوجها، فاحتفظتْ بقسيمة الطلاق الأول ، ولم يُعلم عليها والدى بالزواج الثانى أو الرجعة ، فذهبتْ إلى القاهرة وتزوجت بهذه القسيمة زواجا ثانيا ، فصارت زوجا لزوجين ، ولم تستطع نظارة الحقانية التصرف فيها ، غير أنه أصابنى منها « الوقف » عن العمل شهرا ، بعد أن تبين القاضى حسن نيتى ، فحاول تخفيف جزائى إلى هذا الحد الصغير . كان وداع القاضى مؤثرا ، وقد احتفظت له بجميله فى القضية الأولى ، كما شكرت له حفاوته وتمنياته فى الموقف الأخير !

تجارة

سيعجب القارىء من هذا العنوان ، إذ لاصلة له ظاهرة بالجامع الأحمدى ، ولكنها إجازة طويلة ، منها شهر رمضان ، وقد خشى والدى أن أقضيها لاعيا أولاهيا ، فأعود للجامع بعدها وقد نسيت ماحفظت وجهلت ماتعلمت ؛ فاخترع لى عملا يجمع بين الدنيا والآخرة ، وبين الرياضة والجد ، وبين دراسة دينية وأخرى دنيوية .

كان للأسرة عادة فى رمضان ، أن تختزن من طعامها ما تدعو إليه التوسعة المألوفة ، إذ يرتفع مقرر الأرز والبطاطس فى هذا الشهر ، كما يضاف إليه أصناف من القطائى كاللوبيا والفاصوليا ، والسحور يستدعى شيئا من الزيتون والحلوى .

كل ذلك حمل والدى على أن يعطينى جنهين انجليزيين ذهباً قبيل رمضان سنة ١٣٢٥ هـ أكتوبر سنة ١٩٠٧ لأشترى منهما جوالق « شوالا » من الأرز وشيئا من الحلوى والزيتون والقطائى ، فأمد المنزل بما يحتاج إليه وأشتغل بالتجارة فى الباقى .

أعد لى منظرة أو مندرة أتخذها حانوتا ، وكانت بجوار الباب ، ولها عدة نوافذ ، وبها دكة خشبية طويلة ، كان عليها محلسى بجانب إحدى النوافذ .

اشتريت مع السلع ميزاناً وصنجاً ، ومكيالا متوسطاً ، هو ربع الكيلة أو « ملوة ».

كنت أجلس طول النهار فى حانوتى لإجابة طلب المشترين ، وكان ضرورياً أن أشتغل بجانب ذلك بالقراءة والحفظ ، إذ أن عدد المترددين على هذا الحانوت قليل ، والفترات بين الصفقة والصفقة طويلة ، فالعملاء أو « الزبائن » هم أهل الحارة ، ومن تطاير إليهم الخبر من الحارات الأخرى ، أو ممن سمعوا عن جودة بضاعتى ، أو وفاء الكيل والميزان عندى . وكان من أهم العملاء من استنفدت معاملته النسيئية سائر الحوانيت فى البلد ، فتحين الفرصة لفتح حساب جار عند هذا التاجر الحديث ، الذى خرج على قاعدة « ربنا يكفينا شر تاجر جديد » ولم يعمل بالنصيحة المعروفة « شكك تجبر . طالب تخانق » . أما البضاعة فكانت من أجود الأصناف وأرقاها ، فالحلوى أو الحلاوة الطحينية الشامية البيضاء التى لم يألفها الفلاحون فى الأسواق التى يرتادونها ، كانت خير تفكهة لمن ملك نصف قرش أو ربعه ، وكذلك الزيتون الذى لاعهد لهم به ، وحلوى كرم الله (الكراميل) التى لم يستوردها تاجر غيرى فى القرية ، كل ذلك كان خير إعلان (ركلام) لى ولتجارتى ! وأما موازينى ومكيالى فناهيك بها من موازين ومكاييل وافية ، فصنجة ربع الرطل كانت فوق أربع

أوقيات ، وصنجة ثلث الرطل تقرب من نصفه ، والأوقية تقرب من أوقيتين ، « والملوة » فاقت المكيال « العباسى » الوافى الذى ظهر فى ذلك الحين ! هذا الايفاء فى الكيل عند البيع ، وهذه الزيادة فى الميزان ، زادت عدد المشترين منى ، فاتسعت حركة البيع والشراء ، زيادة حملتنى على ملازمة الدكان .

وكانت النتيجة المادية للتجارة — فوق تفكهة أهل الدار — ربح نصف ديتار ، كان نسيئة عند بعض الصباغين ، حصله والدى أخيراً ؛ والنتيجة العملية والأدبية قراءة طول الوقت وأنا متربع على الدكة أمام الميزان بجانب النافذة ، ونقل بعض المتون وحفظها ، وتحصيل شىء ليس باليسير من العلم .

مجاور فاسد

أريدك بهذا العنوان على أن تفهم أن حياة « المجاور » ، المجاور بالمعنى الدقيق ، أو المعنى الذى تنطبق عليه أو ينطبق هو عليها فى ذلك الوقت — كانت حياة تدين وتعفف ، وحياة انقطاع إلا عن الدين ودراسته ، حياة تكاد تحرم على الطالب أن يدرس غير الفقه والنحو والتفسير والحديث ، والبلاغة والأصول ، وما أشبهها ، من العلوم التى توصل إلى فهم أسرار كتاب الله وسنة رسوله ، ومعرفة أصول الدين وفروعه . فلا يليق بالطالب أن يضيع وقته فى دراسة الحساب ، ولا أن يتعلم الجغرافيا فيدرس أن الأرض كروية ، ولا أن يتعلم الإنشاء لأنه صناعة الصحفيين ، ولا أن يحسن خطه لأن هذا من عمل « الكتبة العموميين » ! فعراك فى سبيل الحياة العملية ، أو فى سبيل التحرر من قيود التربية الدينية البحتة ، والإلمام بطرف من علوم الدنيا — كان يُعد خروجاً أو انحرافاً عن طلب العلم . ولكن هناك أرواحاً ظمأى متعطشة إلى معرفة شىء من العلوم الحية ، أو علوم الحياة والمعيشة ، هناك عقل لم يكفه أن يدرس أقسام الماء من مطهر وطاهر ومستعمل ، ولا أن يعرف كيف يصلى على الميت ،

ولا أن يلم بالحدود (العقوبات) وهو لم يول أمر القضاء على من انحرف أو خرج عن جادة الشرع الشريف !

هذا العقل المسكين حائر ، يرى من الخسارة أن يقصر حياته على قراءة أحكام لا عمل بكثير منها ، وتضيق نفسه أن تضيع ساعة فى شجار بين الواو والفاء ، وأفضلية التعبير بإحداهما بدل الأخرى ، وإجمالا يريد بصاحبه أن يكون رجلا صالحاً للحياة، ملماً بطرف من العلوم الحديثة ، كالحساب والخط والإنشاء ، والجغرافيا والتاريخ ، بجانب علومه الدينية .

١ — سمع أن رجلا يتبرع بكتابة « صورة الفدان » فى قطع من الورق الرقيق الردىء ، ليوزعها على الطلبة فى الجامع ، فهرع إليه ليتناول نسخة منها ، وأخذ يكررها ليحفظها : دانق ، حبة ، نصف قيراط، إلى آخر تلك الأسطر التى لا أستطيع ترديدها الآن، والتى ترى صورتها فى الصفحة الآتية .

٢ — رأى أن من بين العلوم الحديثة التى تقرر تدريسها بالأزهر فى سنة ١٨٩٦ م علمين تسللا إلى الجامع الأحمدى ، وهما الحساب والخط ، أعدت المشيخة للحساب درسين أحدهما بزاوية القصبى والثانى بمسجد البهى عصرا ، فى أيام من الأسبوع خاصة، ولست أدرى السر فى تخصيص هذين المكانين البعيدين بالتدريس !؟ ربما كان ذلك لأن دُرسهما عورة ، وكل عورة

يجب سترها ، أو أن هذين المكانين أبعد عن ضجيج الطلبة وأهدأ من الجامع ، وقد اعتاد هذان المدرسان ، وهما من المدرسة الابتدائية، ألا يدرسا إلا في جو يسوده الهدوء والسكون؟!

صورة الأذان

كسر القيراط	رمزه	عدده	كسر القيراط	رمزه	عدده	كسر القيراط	رمزه	عدده
واحد سدس قيراط	ط	١/٦	عبة ثلث قيراط	ط	١/٤	نصف قيراط	لم	ط ١/٢
نصف قيراط وعبة	لمط	١ ١/٢	قيراط	لم	١	نصف الثمن	نم	١ ١/٢
نصف الثمن وعبة	نمط	١/٢ + ١/٤	قيراطان	مو	٢	ثمن	و	٢
سدس قدان	ك ك ك	٤	خمس قاريط	مكو	٥	ربع قدان	ن	٦
سدس وثمن	ك ك ك و	٧	ثلث قدان	نلو	٨	ربع وثمن	ن و	٩
ربع وسدس	ن ك ك ك	١٠	ثلث وثمن	نلو و	١١	نصف قدان	س	١٢
ربع وسدس وثمنه	ن ك ك ك و	١٢	ثلث وربع	نلون	١٤	نصف وثمن	س و	١٥
ثلثان	ى	٢٦	ثلث وربع وثمن	نس و	١٧	نصف وربع	سع	١٨
ثلثان وثمن	ى و	١٩	نصف وثلث	سك	٢٠	نصف وربع وثمنه	سع و	٢١
ثلثاه وربع	ى ع	٢٢	نصف وثلث وثمنه	سك و	٢٣			

أما من أراد تعلم الخط ، أو تحسينه ،فعليه استحضار المشق والكراسات الخاصة ، وشراء بضعة أقلام من القصب الفارسي

المعروف بالبسط ، والتوجه بها إلى الخلوات أو الخلاوى، حيث يجلس المرصفى افندى ومن معه ، ليعلما أو يعلموا على ما كتبه الطالب بعد عرضه عليهم فى سكون وأدب .

ذهب هذا الطالب إلى أحد درسى الحساب، فوجد المدرس المتأخر يدرس فى موضوعات وجدها فى كتاب « الدرر البهية فى الأصول الحسابية » للمرحوم محمد ادريس بك ، يشرح العمليات أحسن شرح ، ويجيد تفهيمها أكثر من هذا المدرس ، فأخذ يطالعه ويفهم مافيه ، لأنه اعتاد ، بدراسته الاستقلالية ، استخراج دفائن الكتب بنفسه ، فأصبح فى غير حاجة لمثل هذا الدرس .

أما الخط فقد جعل يتردد على درس الخط ، وهناك عرف أستاذا خطاطا كان « أخا » له فى الحضرة الشاذلية ، ووجد منه معلما خيرا من « المرصفى افندى » الذى لم يدر إلى الآن السر فى مطاردته له ، ومعاملته معاملة خشنة ، عفا الله عنه ورحمه . لم تمنع الطالب هذه الإهانات المتكررة ، من الجلوس فى طرقة « الخلاوى » ، مع الجالسين ، الذين يشعر صرير أقلامهم بهدوء الدرس ، ومنتهى السكون فيه .

٣ — لم يكتف بهذا الحظ من تلك الدراسة الحديثة ، ورأى للدروس الخصوصية بالمدرسة الابتدائية بعد ظهر الخميس وقبل

ظهر الجمعة من كل أسبوع ، وهما من أوقات فراغه الأسبوعى فأحب أن يندمج فى سلك من يحضرونها ! أغرته الكراسات « الأميرية » المسطرة وعليها اسم « نظارة المعارف العمومية » كما أخذ بلبه شكل تلك الكتب الأميرية من « النفحات العباسية » و « الفوائد الفكرية » و « التهجى والمطالعة » ونحوها من الكتب المطبوعة بالمطبعة الأميرية ، فى ورق جيد وفى جرم أصغر وألطف من الكتب الضخمة التى لا يستطيع حملها إلا كراسات أو « ملازم » متفرقة !! ولكن كيف يحضر هذه الدروس ، وهى للفقهاء والعرفاء بالكتائيب ، لا لطلبة العلم من المجاورين ؟ ! كيف يكون فقيها أو عريفا وهو ليس من معلمى الصبيان ؟ ! لا عجب ! هذا أمر لا يصعب عليه ، كما اعتاد أن ليس شىء مستحيلا ، والحاجة تفتق الحيلة ! نعم الأمر يسير هين : الشيخ مصطفى الجندى أستاذ الصباح مسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وقد أصبح وقت درسه خاليا ، ويثقل على طلبة هذا الشيخ أن يحضروا درس غيره فى غيابه . وهى فرصة لأن يشتغل فى كتاب « النجاح الأهلى » بكفرة « على أغا » فى هذا الوقت وفى أوقات فراغه ، عريفا ، مع صديقه « أخينا » الفقيه الشيخ « أمين غنيم » الذى تصادق وإياه فى حضرة الإخوان الشاذلية !

وقد وصل إلى غرضه ، فلحق بهذه الدروس وصار يحضرها

فى المدرسة الأميرية من فبراير سنة ١٩٠٦ م. قُبل طالبا بالفصل السادس مع المستجدين من الفقهاء والعرفاء الذين يحضرون هذه الدروس ، وبعد اختبار خاص بهم وثب إلى الفصل الثالث، وهو أقصى ما يمكن عمله رسميا. ولكن قضى عليه حظه السيء وتفكيره بأن يمتحن آخر العام الدراسى فى «امتحان الفقهاء والعرفاء» العام فتقدم إلى الامتحان «من المنزل» لأنه لا يقبل به عن طريق المدرسة الا طلبة الفصلين الأول والثانى فقط ؛ ومع هذا نجح فى الامتحان فحصل على شهادة فقيه فى صيف سنة ١٩٠٦م وبذلك قطعت صلته بهذه الدروس على ألم ومضض . وليس ينسى ما شمله من السرور يوم دخل المدرسة فى فبراير ومقدار هذا الشرف الذى ناله بانتظامه فى دروسها ، وما صحبه وغطى عليه من ألم المواجهة «المرصفى افندى» فى حصة الخط بالفصل السادس حين قال له : (أنت هنا أيضا !!) ولكن الألم لم يطل ، ولله الحمد ، لانتقاله إلى الفصل الثالث الذى لا يدرس فيه هذا (المرصفى) .

كان هذا المسكين قبل قيد اسمه بالمدرسة مع الفقهاء والعرفاء يقف كثيرا أمام باب المدرسة الابتدائية ، ويتخيل هذه الدروس المنتظمة ، التى يدق الناقوس لابتدائها وانتهائها ، فيصطف التلاميذ فى الفناء عند الدخول والخروج منها ؛ ويرى صفوف التلاميذ الأربعمائة ، وهم سكوت لا يسمع فوق رءوسهم إلا شقشقة

العصافير فوق شجرة وسط الفناء ؛ ويرى فى «عم ادريس» بواب المدرسة شخصا كأنه «رضوان» الجنة ! هذا اللطيم أمام المدارس وأمام «المرصفى» أخذ يتصيد حرفا من الخط، ورقما من الحساب وجانبا من قواعد الكتابة أو الإملاء ، ويصطنع شيئا من الإنشاء فيقتنى كتاب « جواهر الأدب » ويأخذ من والده نسخة « مقامات الحريرى» يقرأ فيها ويحفظ شيئا من شعرها وألغازها ولم يكتف بدراسة شرح «السعد» عصرا بعد إتمام شرح «الاشمونى» ظهرا ! هذا اللطيم لم تعفه الأيام وحرص والده على إتمام دراسته الدينية ، على ما كان يلاقى فى تنقله وتخطف معلوماته فى هذه الفنون المختلفة — لم تعفه من حضور والده بعد انتهاء درس العصر وشكواه إلى الشيخ الذى لم يقتنع بتقريعه وتوبيخه على تفريطه بتعلم أمثال هذه العلوم ؛ بل همّ بضربه وإيذائه ، أمام إخوانه ، وإن لم يفته أن يمدحه الى أبيه ، وأن يذكر له أنه عاقل وذكى ، وأنه قال خطبة بليغة عند ختام كتاب « الأشمونى » ، وكفاه بذلك فخرا ! اشتغل هذا الطالب بالحساب ، واشترى كتبا فيه ، حتى كوّن مجموعة من المسائل ، تربو على أربعمائة مسألة صعبة ، أخذ معظمها من كتاب كان يدعى « الفهميات ، أسهل كتاب فى علم الحساب » فحلها بعقله وألفها كتابا يدعى « المظاهر الربانية فى حل المسائل الحسابية » ولعلك تلحظ أن عبارة الاسم فيض من فيوض الحضرة الشاذلية. وقد عرض هذا

الكتاب للطبع على يد أحد الكتبية فرفض لصعوبة مسائله . وهذا غير كتاب آخر دعاه « حسن المقال فى حساب الأطفال » أوحت إليه فكرة تأليفه « النفحات العباسية فى المبادىء الحسابية » وقد اشترك معه فى هذا الكتاب الثانى تلميذ بالمدارس ، واختلس أصوله ؛ أما الأول فلا تزال أصوله محفوظة « بالمكتبة الجوادية ».

أما الإنشاء فقد أخذ يكتب فى الموضوعات الواردة فى كتاب « جواهر الأدب » ثم سرت إليه العدوى من « مقامات الحريرى » فكتب مقامات فى مناسبات شتى ، على نمط مقامات الحريرى ، ولا يزال محتفظاً ببعضها فى كراسة المنشئات . ولما كان يرتاد « نادى الشبيبة المصرية » بطنطا ويحضر بعض حفلاتها ، فقد تسربت إلى نفسه فكرة الخطابة ، وقام فيها خطيباً ذات ليلة منددآ على هذه الجمعية ، لأنها دعته لافتتاح الحفلة بتلاوة بعض آى الذكر الحكيم ! وكان من أثر حضوره حفلات هذه الجمعية ، أن أسس فى قريته ، كفر هورين ، جمعية على غرارها ، أسماها « الجمعية الأدبية الجوهرية » سنة ١٩٠٨ م . والجوهرية نسبة إلى أسرة « جوهر » خال أمى . حضر بعض أبنائها إلى القرية ضيوفا وهم تلاميذ ، فأنشئت الجمعية تحمل لقبهم . وكان يعقد احتفالات لهذه الجمعية برآسته ، تدوم الخطابة فيها أحيانا نحو أربع ساعات ، يدعى إليها أعيان ومتعلمو القرى المجاورة .

وقد أراد الله أن يوفّى هذا الدين ، أو ترد هذه التسمية فأسس بعض الطلاب بالقرية جمعية أسماها « هيئة الطلبة الجوادية » سنة ١٩٢٥ م كان لها أثر فى نهضة القرية زمنا طويلا ، تعددت فيها اللجان وكثر منها الإرشاد والعمل . ما بال هذا الطالب يشرك مع دراسته الدينية كل هذه المواد ، وماله لا يهدأ صيفا ولا شتاء. لعله غير مكتف بحاله فى الجامع فهو يتوق إلى المجتمعات والدراسات الأخرى ؟ ماله يقرن علوم الجامع بهذه العلوم ؟! وماله يوازن بين أساتذة الجامع فى زيهم وتواضعهم ، وأساتذة المدارس وخريجى دار العلوم خاصة ، فيرى فى الآخرين نشاطا ورشاقة وخفة ، ويسمع منهم طلاقة فى اللسان ، ويحس منهم حدة فى الذهن ، وسرعة فى الخاطر وسدادا فى الإجابة ، ترفعهم فى نظره ونظر كثير من إخوانه المجاورين ، كما كانوا يعجبون بمشيتهم وملابسهم ونظافتهم ونظامهم ، ويحمدون منهم جرأتهم فى المحاجّة ، ومنطقهم السليم . لعل هذا كله كان تمهيدا لبعده القهرى عن الجامع ، وانتسابه فيما بعد لدار العلوم ! لم يكن هذا المجاور ، ليختلط بالتلاميذ ، ويتطلع إلى المدارس ، بدون أن يلم بطرف من اللغات الأجنبية ! يذكر أن أول علمه باللغات الافرنجية أنه تعلم كتابة اسمه بالحروف اللاتينية ، وشغف بهذه المعرفة ، حتى إنه كان يضع تلك الحروف بالقلم الرصاص على

« لبدته » الرومية ، التى كان يلبسها صغيرا ، أما بعد ذلك فقد هداه أحد تلامذة المدارس القاطنين معه إلى كتاب فى اللغة الانجليزية لا يزال يذكر اسم مؤلفه ، وهو « جرجس ميلاد » ، ومن هنا وفى هذا الكتاب ألم بطرف من اللغة الإنجليزية . على أنه كان يقتحم المنازل بعمامته ليتعلم كلمة أو كلمتين على تلميذ يعرفه ، أو تعرفه ، وكان ، مع جهله باللغة ، يتعلمها بطريق السؤال ، فيدعى العلم بألفاظ ، ثم يسأل التلاميذ فى معناها ، فتكون فرصة للنطق والحفظ . ولهذا غادر الجامع — بعد طرده — إلى الأزهر ، وهو على جانب من العلم بمبادىء اللغة الانجليزية ، سهل عليه دراسته للغة الفرنسية فى المدرسة الإعدادية الليلية — على ما ستراه بعد .

فتنـــــة

فى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) صدر قانون إصلاح الأزهر ، فقامت هناك فتنة ، وقفت الدراسة زمنا طويلا ، قصد إعلان استياء أهله من هذا النظام . وقد كان على رأس هذه الحركة فئة من الطلاب ، بقيادة « المرحوم » الشيخ فهيم قنديل . ولست أدرى بالتفصيل ما فعلت هذه الجماعة ، وماذا كان مطلبها ، ولا إلى أى نتيجة وصلت ؟ ! وكل ما فى الأمر أن تلك الجماعة كانت تخطب فى الأزهر خطبا ، لا أعرف على وجه التحقيق نصوصها ولا مرماها ، وإنما هى فى موضوع هذا الإصلاح ! !

الثورات كالحريق ، ينظار شررها إلى مكان سحيق ، وقلما يمكن حصرها فى مكان واحد . لهذا اندلع لهيبها إلى الجامع الأحمدى ، وهو الأزهر الثـــانى ، وليس بعدهما إلا معهد الاسكندرية وهو معهد جبل على النظام ، وسار فى طريقه من سنة ١٩٠٣ م فلا يشارك الأزهر إلا فى موضوع الدراسة . بل إن الأزهر يراد به أن يسير على نظام كنظام معهد الاسكندرية ، وبذلك اقتصرت الفتنة ، بعـد الأزهر ، على الجامع الأحمدى .

يمتاز طلبة الأزهر باللسن والفصاحة ، لبيئتهم وقربهم من

المعاهد الثائرة ، مثل مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت ، ولسهولة اتصالهم بأمهات الصحف ، واستماعهم لكثير من المحاضرات التى تلقى فى العاصمة ، وشهودهم كثيرا من الحفلات والاجتماعات العامة أو السياسية ؛ ولهذا كثر خطباؤهم ، فعمدوا إلى الخطابة بعد انقطاعهم عن الدروس . أما طلاب الجامع الأحمدى فهم وراء طلبة الأزهر فى هذه الناحية ، بمراحل عدة ؛ وقل منهم من كان يختلط بالأوساط الراقية كما يقولون، ولهذا ندر فيهم الخطيب وقل منهم الكاتبون . ولكن مهما كانت حالهم كذلك ، فلا بد من أن يصطلوا نار الثورة ، وتدب بينهم روح الفتنة !

كان الأمر كذلك وبدأ الطلاب بالجامع يجتمعون ويتآمرون ، ومشيخة الجامع تتعقب هذه المؤامرات ، وتجتث الفتنة من جذورها ، بفصل الطلاب المتآمرين ، وإرسالهم إلى بلادهم . وكان شيخ الجامع فى ذلك الوقت هو « المرحوم » الشيخ محمد حسنين العدوى ، الذى خلف الشيخ محمد الرفاعى الهين اللين ، فكان حازما يقظا ، بل بالغ فى الحزم إلى درجة الشدة ، قمعا للاضطرابات ومنعا للفتن .

توالى فصل جماعات الطلاب المتآمرين ، وكثر سماع هذه المآسى من الطلاب الباقين فلم يلبثوا أن سرت إليهم عدوى الفتنة وكان لا بد من أن يلقوا بدلوهم فى التآمر بين الدلاء ! وقد أشعل

هذا الميل فى نفوسهم ما كانوا يرون فى المشيخة ، من استبداد ومحاباة ، وإيثار بعض الطلبة على بعض ، لصلة هؤلاء ببعض الشيوخ ، وانقطاع أولئك عنهم ، ولا ريب فى أن مثل هذه الحركة كان ضروريا ، أو نتيجة طبيعية لتغيير نظام بنظام ، أو لإحلال النظام محل الهمجية والفوضى ، كما يزعم دعاة هذا النظام الحديث ! ! مضى من السنة الدراسية ثلاثة أشهر ، والدروس منتظمة ، وتلك المؤامرات تقمع ، فلا تستطيع عمل شيء ، وكثرت الجواسيس فى الجامع . وقد حدا هذا بعض كبار الطلبة ومتنوريهم إلى أن يتآمروا كغيرهم ، ولكن مع الاحتياط والحذر ، لئلا يقبض عليهم كما قبض على غيرهم ، بدون أن يعملوا شيئا . وإليك حديث أحدهم عن سير المؤامرة ، ونتيجة هذه الثورة ؛ وليعذرنى القارىء إذا استعملت كلمة « الثورة » فقد كانت عنوانا لما حصل بالجامع الأحمدى سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وإن كانت السياسة أو التاريخ يعطيها معنى أو صبغة أخرى !

قال الراوى : رأينا أن المشيخة تتعقب الاجتماعات ، وتتعرف أمكنتها وأزمنتها بسهولة ؛ فعلينا أن نحرص على سرية المكان ، وتغييره ، وبعده عن الجامع ، بحيث لا تلحظ حركة الاجتماع .

أما الزمان فأنسبه ذلك الوقت الذى كان مشغولا فيه شيخ الجامع ، وخدم المسجد واتباعه ، وجواسيسه طبعا . هذا الوقت

كان بين المغرب والعشاء ، حين يقرأ الشيخ شرح « المقولات العشر » فى جمع حاشد ، فى إيوان من ايوانات الجامع . وكان المجتمعون فى الدرس بين مستفيد ، ومُراء وخادم ، وحارس جاسوس !

نجحت هذه الاجتماعات ، فبدأ عددها قليلا ، وأخذ ينمو ويتكاثر ، حتى ضاقت بهم المنازل فى الاجتماع الأخير ، فقرروا أن يكون هذا الاجتماع النهائى ، فى الحقول ، عند « ابورالنور » وهو أبعد مكان عن السكن ، بينه وبين الجامع أكثر من ميل .

قال الراوى : وكان بين المحرضين على بث الفتنة وإشعال نار الثورة ، أحد أقارب المشايخ ، وكان مأربه أن يحصل على معلومات عن « الثورة » يقدمها للمشيخة عربونا لتعيينه ملاحظا فى الجامع . وقد تم له ماأراد ، غيرأنه لم يتمكن من العلم بمكان الاجتماع ، لأن المتآمرين كانوا يخشونه ويخشون أمثاله ، رغم إدلائه بآراء فى توجيه الثورة . غدا تكون « الثورة » ! وفى ليلتها يذهب مئات الطلاب فى وقت درس « الشيخ العدوى » إلى الحقول . وهناك يقف كبار الطلبة على مفترقات الطرق للحراسة ومعهم الأدلاء يرشدون إلى مكان الاجتماع ؟

قال الراوى : وبعد الغروب بنصف ساعة ، كان المجتمعون فى حقل محروث ، يكونون رقعة بيضاء ، لما كان على رؤس الطلبة

من العمائم ، مستديرة ، قطرها يقرب من عشرين ذراعا ؟ هربنا من جواسيس المشيخة ، ولكنا فوجئنا بالعسس فى « داورية » ليلية بين المزارع ، فأسرعنا إليهم ، وبسطنا لهم أننا مظلومون ، وقد جئنا هنا لنجتمع على طلبات لرفع هذا الظلم ، فانصرفوا وتركونا بعد الدعاء لنا بالتوفيق .

التأم عقد الجمع فوقف أحدهم خطيبا ، متمثلا بمقالة للمرحوم السيد عبد الله النديم ، عنوانها هذى يدى ، فى يد من أضعها ؟ ! وتلاه آخر ، وتنافس المجتمعون وقرروا الإضراب عن الدروس غدا فى درس الساعة العاشرة صباحا . وكيف يكون الإضراب؟ يرفع العلم الأحمر لإعلانه . ولكن إذا اتضح ذلك قبض على صاحب العلم ! قال قائدنا : ليكن العلم منديلا أحمر ، يتوضأ صاحبه ويأتى على حافة صحن الجامع ويقف ليجفف يديه ووجهه بالمنديل ثم ينفض المنديل ، فتكون إشارة الاضراب ! ثم قال : ولكن هبوا أنه قبض على حامل العلم قبل أداء مهمته ، فيجب أن يكون له خليفة ! وقد تم الاتفاق على ذلك واختاروا فلانا وفلانا لرفع علم الإضراب والثورة . وليلاحظ أن الأمة والحكومة فى هذا الوقت لم يكن عندها فكرة الإضراب كما هى معهودة الآن عند كل الطوائف .

قال الراوى : وبعد أن قرروا الإضراب فى الساعة العاشرة

صباح غد ، اتفقوا على أن يجتمعوا فى ناحية معينة من الجامع بعد تعطيل الدروس ليخطبوا ويتباحثوا ؛ وتلك كانت غلطتهم فإن كل مرحلة أتقنوا ترتيبها إلا هذه النقطة ، لأن وجودهم بالجامع مكّن الشرطة من أن تعيدهم إلى الدروس حالا بالقوة ؛ ولو أنهم قرروا الانصراف بعد وقوف الدروس ، وخرجوا من الجامع لكان حال الجامع غير ما كانت عليه ، بعد هذا الإضراب الفاشل !

بعد قرارهم هذا رجعوا إلى المدينة من نواح متفرقة ، عملا بوصية يعقوب ، فقابلهم بعض جواسيس المشيخة ، ولكن التكتم حال دون علمهم بشىء هام اه .

أما أنا فكنت جالسا أتناول الفطور ، قبيل الساعة العاشرة المضروبة ، وبين يدى خبز الراتب الجديد ذى الثلثمائة درهم ؛ وبينما أنا أتمتع بهذه « الجراية » التى كسبتها من طريق امتحان المسابقة التحريرى ، إذ انقض علىّ « المرحوم » الشيخ مصطفى الخشاب ، المشد ، وساقنى إلى الإدارة واحتجزنى فى المشيخة ، ثم نزل إلى الجامع .

ولم تدق الساعة العاشرة ، حتى سمعت الصياح والهياج فى الجامع ، فكان يعود إلىّ المشد متوعداً مهدداً ، وكان الصياح يخبو تارة ويزيد أخرى ، حتى جاءت الشرطة وأعادت النظام فى الدروس بكل سهولة ، لخطأ فكرة اجتماع الطلاب بالجامع . وقد

قُبض على عدد من الطلبة الهائجين ، وساقونا جميعا — حتى أنا — إلى المحاكمة ، بتهمة الاعتداء على بعض المصلين والملاحظين . فبتنا ليلة فى مركز الشرطة ، بعد تحقيق استمر طول النهار . وفى صباح اليوم التالى سيق غيرى إلى المحاكمة . وحكم عليهم جميعا بغرامة على التضامن ، وبهذا انتهت تلك الحركة .

عدت إلى المنزل ، ثم إلى الجامع ، فطردتنى المشيخة ، بعد أن بعثت لوالدى بالكتاب الآتى نصه :

المحترم ولى أمر « محمد عبد الجـــواد » الطالب بمشيخة الجامع الأحمدى .

المشيخة رأت إبعاد هذا الطالب وسفره إلى بلده وحرمانه من الدروس أسبوعا لفساد أخلاقه وسوء أعماله التى أضرت بغيره حتى يحضر ولى أمره ويطلع على ماجناه مع العلم بأنه إذا لم يفارق طنطا فى هذه المدة ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب ستضطر المشيخة لتقديمه للنيابة وللاحاطة أفدناكم .

١٣ صفر سنة ١٣٢٧ ٦ مارس سنة ١٩٠٩

شيخ الجامع الأحمدى

محمد حسنين (امضاء)

سافرت إلى البلد لقضاء الأسبوع ، فرأيت من والدى حسرة لانقطاعى عن الجامع ، فى الوقت الذى أعد فيه ٦٠ جنيها

لتساعد فى نيلى درجة العالمية ، فلم يسعه إلا السفر إلى القاهرة ، للسؤال عن صديق لشيخ الجامع يرجوه فى إعادتى إلى حظيرة الطلبة ، فعاد ومعه كتاب من أحد أصدقائه ، وتوجه لطنطا به ، وسلمه إلى الشيخ ، فكان هذا مستندا جديدا لرفتى نهائيا ، وارسال الجواب التالى إليه :

مشيخة الجامع الأحمدى

المحترم ولى امر ، محمد عبد الجواد ، الطالب بمشيخة الجامع الأحمدى

مجلس الإدارة قرر محو اسم هذا الشخص من سجلات الطلبة وحرمانه من العودة لسلك طلاب العلم ثانياً لفساد أخلاقه وسوء أعماله التى أضرت بغيره وقد أبعدته المشيخة عن الدروس . — إلا أنه إذا لم يفارق طنطا ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب ستضطر المشيخة لتقديمه للنيابة وللإحاطة أفدنا كم ؟

شيخ الجامع الأحمدى

امضاء

محمد حسنين

تحريراً بطنطا سنة ١٣٢٧ ١٢ مارس سنة ١٩٠٩

(تذييل) وأزيدك أن جميع أعماله السيئة مسطرة لدى المشيخة حرفا حرفا .

وبهذه الكيفية انقطعتُ عن الجامع — كما انقطع كثير غيرى — ولم تنفع الشفاعات لدى الشيخ لأن الله أراد غير ما يريد والدى . أراد — على الرغم من والدى — أن أدخل « دارالعلوم » ، وأن ألبس الحذاء وأسير به على البسط الأعجمية ، لا على الحصير كما كان يقول ، وأن يرانى متقبعا ، سائراً على بساط فاخر .

ولما أراد الله دخولى « دار العلوم » ، فرحت تلك الشيعة التى طالما عرضتْ على والدى ذلك من سنوات ، وحملنى المرحوم الشيخ الشرقاوى رسالة إليه ، يقول له : يثاب المرء رغم أنفه .

هذا ، وفى الفترة التى بين مارس سنة ١٩٠٩ وسبتمبر سنة ١٩٠٩ حصلت أحداث جديرة بأن أسجلها لك فيما يلى :

فـــترة

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ! تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن!

أراد والدى أن أكون من العلماء ، وأراد الله ألا أكون ! ولم يرغب والدى فى لحاق بدار العلوم ، لما كان يرى من استهتار طلبتها بالدين ، وانهماكهم فى العلوم الحديثة ، وظهورهم أمام الناس ، لا بمظهر التواضع اللائق بطالب العلم ؛ ولـكن الله قدر أن أكون طالباً بدار العـلوم ، وأن أكون علما من أعلام خريجيها !

ألم أفصل من طلب العلم بالجامع الأحمدى ، وأنا على أبواب امتحان العالمية ، بحجة سوء السلوك وفساد الأخلاق ، كما يقول الـكتاب الرسمى للمشيخة ؟ !

يا لله! هل من سوء السلوك وفساد الأخلاق ، أنى قضيت بالجامع عشر سنوات كاملة ، لم أغب فيها يوما أو بعض يوم ! ونجحت فيها فى امتحانات المعافاة من القرعة العسكرية ، والترقية من الدرجة الثالثة إلى الثانية ومن الثانية إلى الأولى ، وكنت أول الناجحين فى الامتحان التحريرى لاستحقـاق الخبز الجارى (الجراية) ؟ . قد استعد والدى لطلبات امتحان العالمية

مع ذلك وأنا فى انتظاره ، ثم أبعد أخيراً لسوء السلوك وفساد الأخلاق ! ولكن :

القضا تحكم فالزم السكون

لا تكثر لهمك ما قدر يكون !

انقلبت الحسنات سيئات ، وصار الصديق عدوا ، كل ذلك كان تنفيذا لقضاء الله ! كان الشيخ احمد الفقى (عفا الله عنه) ممن لزمتهم من الأشياخ طويلا ، بعد الشيخ مصطفى الجندى ، فقد حضرت عليه الأشمونى والسعد والشنشورى وبعض حكم ابن عطاء الله السكندرى ، وطالما وقفت فى حفلات اختتام الكتب التى كان يقرؤها ، أثنى عليه وأروى مآثره وفضله ، كما كنت أحسن الى بنت كريمته الوحيدة بتقديم الهدايا لها فى المناسبات المناسبة . أبى هذا الشيخ الصديق اللدود ، إلا أن يرد هذا الجميل بالثناء علىّ وإطراء ذكائى عند التحقيق فى سبب الفتنة التى رويت أخبارها . حتى كان هذا المدح مساعدا على فصلى من الجامع ، لجهله بأن ذكاء المرء محسوب عليه ! بل لقد بلغنى انه أغرى المشيخة بمخابرة « الحقانية » لرفتى من المأذونية ، بعد إلغائها إعفائى من الخدمة العسكرية .

لم أطق البقاء فى القرية ، بعد قطع الأمل من وجودى بالجامع

على مارأيت فى الفصل السابق ، فرحلت إلى الأزهر ، علّنى أجد رحابه أوسع ، وقدمت الانتساب اليه ولم أدر ان إثبات اسمى هناك يحتاج إلى موافقة الجامع الأحمدى ، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ورُد الانتساب مع عدم الموافقة ، لأنى فصلت لسوء السلوك ، بتحريض الطلبة على الخروج على النظام .

رضخنى هذا الأمر ، ولم تغن فيه حيلة ولا شفاعة ، وبقيت بالأزهر شهورا ، جلست فيها فى حلقات بعض شيوخه الأجلاء ، وفكرت فى توجيه مجهودى وجهة أخرى حتى تنتهى السنة الدراسية .

فى المدارس الاعدادية

فرصة مواتية ، وبشرى لطلبة العلم بالازهر الشريف ! قد افتتح « الحزب الوطنى » من مدارسه « المدرسة الإعدادية الليلية » لتعليم طلبة الأزهر اللغة الفرنسية ، لقاء أجر زهيد أو رسوم انتساب لاتتجاوز خمسة قروش فى الشهر ! والظاهر أن الغرض - كان - من افتتاح هذه المدرسة ، بجانب المدارس النهارية ، هو إعداد بعض الشبان الأزهريين النابغين لبعوث علمية سياسية فى أوربا للمساعدة فى نشر الدعوة الاستقلالية التى يقوم بها الحزب فى ذلك الوقت .

لم يكن يعنينا نحن الطلبة ، سبب افتتاح المدرسة حينئذ ، فالأمر فى نظرى لا يعدو أن يكون انتسابى اليها قضاء وقت فى تحصيل لغة أجنبية بأجر زهيد كهذا الأجر ، لعلى أن اللغة الأجنبية ضرورية لكل من يريد أن يكون مثقفاً ثقافة جيدة !

لحقت بالمدرسة واشتغلت بها شهورا ، قرأنا فيها كتابين وبعض الثالث من كتب Machuel وتعرفنا فيها بعض أساتذة وطلاب ، وكانت لى فى هذا المحيط متعة اجتماعية لأنها كانت أهم عندى من الفكرة العلمية ، أما الفكرة السياسية فلم يكن لها حظ من تفكيرى ، لأنى مكوى بنار السياسة الدينية فى معاهد العلم .

ومن أعجب ماحدث فى أثناء وجودى بالمدرسة ، أنى غبت عنها أسبوعين فى أوائل افتتاح الدراسة بها ، وعند عودتى إليها صادفنى اختبار حصلت فيه على درجة ٧/٢ أعقبها الاستاذ بقوله : خاب ظنى فيك ، فلعلك تسترجع ثقتى بك فى الاختبار المقبل إن شاء الله ! آلمتنى هذه الملاحظة وإن كان لى عذر الغياب والعودة يوم الاختبار ، فدعانى ذلك للمواظبة والالتفات ، ولم يأت إختبار ١/٥/١٩٠٩ حتى حصلت على درجة ١٨٧/٢ أى ١٣٥٠/١٠٠ مع العبارة التالية : لله درك أيها الفاضل! فحمدت الله على هذه النتيجة ولازلت محتفظاً بورقتى الامتحانين .

وأعترف بأنى قد حصلت على نصيب من اللغة الفرنسية لا بأس عليه ، وأصبحت بحق أدعى أنى أعلم من اللغة الفرنسية قليلا ، Un peu !

جاء الصيف بإجازته ، وغلقت المدرسه أبوابها ، وليس لى طاقة على السفر الى القرية ، كالمعتاد ، لأنى اندمجت مع طلبة هورين وأولاد الشيخ الشرقاوى الذين يعدون أنفسهم لدخول مدارس القضاء الشرعى ودار العلوم ، فلم يكن بد من أن أكون ممن يعدون العدة لذلك احتياطاً ، حتى إذا مافاتنى الانتساب أول العام دخلت دار العلوم بالاحتفال اللائق كما سنرى !

إلى دار العلوم

كان من السهل أن أستعد علميا لدار العلوم ، لأنى قضيت أحد عشر عاما دراسياً هجريا فى طلب العلم ، وكنت منذ سنتين أو أكثر أساعد كثيراً ممن لحقوا بها من الطلبة ؛ فقوتى العلمية فى العلوم الدينية والعربية موفورة ، كما ان عقبات العلوم الحديثة التى كانت تعترض طلبة الازهر حينذاك لاتقف فى طريقى ، لعلمى بها علماً وافياً .

وليس أمامى من العقبات فى سبيل دخول دار العلوم ، إلا الحصول على شهادة « حسن السير والسلوك » الضرورية لضمها لطلب الانتساب إليها ، ومن لى بها وأنا بين الجامع الاحمدى والازهر على الحال التى علمتها ! ليس ذلك بالعسير مادمت محسوبا بين طلاب هورين ! على أنى كنت متصلا ببعض شيوخ الأزهر وهم يوقعون أمثال هذه الشهادة ، بلا حساب ولا تدقيق .

تقدمت لدار العلوم ، وأحضرت منظاراً للكشف الطبى محاكاة لغيرى من قصيرى النظر ، ولكنى لم أستعمله ، لأنى كنت غير محتاج اليه وأديت امتحان الدخول التحريرى فنجحت فيه بترتيب السادس وبعد اداء الامتحان الشفوى كان ترتيبى الرابع .

لم يكن هناك مانع من الدخول ، لأن ترتيبي متقدم ، ولكن هل خرجت من الجامع بالسهولة التي يخرج بها غيري من الطلبة ، فأدخل دار العلوم كما يدخلون ؟ ! أبت المقادير إلا أن يحاط دخولي بسلسلة من العراقيل والاحداث ، باطنها فيه الرحمة ، وظاهرها من قبله الألم والأسف !

طلبت الدار إلى الناجحين وعددهم ٤٥ أن يستعدوا للدخول باعداد الملابس الرسمية (الجبة والقفطان والحذاء الجازم) وحددت يوما لإعلان المقبولين نهائياً . انصرفنا فى طلب هذه الملابس وعُدنا يوم الثلاثاء لقراءة أسماء من سيدخلون المدرسة يوم السبت المقبل ، وكان يوم حشر للطالبين ، علق فيه اللوح بأسماء المقبولين وعددهم ٢٥ فقط فلم يكن من بينهم « محمد عبد الجواد » قد كان بين العشرين المرفوضين ، رغم ترتيبه الرابع ! رجعت بعد هذه النتيجة أجر أذيال السرور باسماً بل ضاحكا ، لأنى أعلم أن دخولى المدرسة على غير أساس ، لما كنت أظنه من ضعفى رغم نجاحي متقدما ، ومن حرج مركزى ، إذا طاردنى شيخ الجامع وأخرجنى منها ، كما حرمنى الانتساب إلى الأزهر الشريف ! ويروى لى بعض اخوانى ، فيما بعد ، عجبه وعجب أخيه من عودتى ضاحكا بعد سوء النتيجة ، مع ان جميع المرفوضين عادوا باكين آسفين ؟ !

ولكن علام الأسف والبكاء ؟! ليس فى الدنيا شىء يؤسفنى بعد ضياع مجهود أحد عشر عاما ، بدون ذنب جنيته ، إلا عملا صبيانياً ، شاركنى فيه مئات من الطلبة ، لم يظهر منهم ولم يسؤ حظ أحدهم ، ولم يهتم الشيخ محمد حسنين إلا بى أنا «ذلك الجسم المملوء شرورا » كما كان يقول عندما رآنى بين يديه ، ووالدى يتضرع إليه بإعادتى إلى حظيرة طلب العلم بالجامع ، ويقول له ياسيدنا الشيخ « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » ، ويأبى ، تنفيذا لقضاء الله وقدره !

كان الناس يعزوننى عن عدم الدخول ، فأعجب من سخف عقولهم ، وأقول فى نفسى : هل فاتنى شىء أعزى عنه ، أنا صحيح الجسم معافى ؟ ! غير أنى عدت إلى القرية أحمل ملابس المدرسة فى صرة نظيفة ، فما إن وقع عليها نظر والدتى (رحمها الله) حتى دارت بها الأرض ، وصفرت أذناها و « وشّت » أى طنّت! وقد بقى هذا الأثر معها حتى الممات ! وإذا كنت لم أجزع من وقع تلك الحوادث ، فإن ما كان من والدتى أهم شىء آلمنى فى عدم دخولى دار العلوم فى وقتها . ولاتسل عما أصاب والدى لفوات غرضه الأول وهو حصولى على شهادة العالمية ، ولما نالاه من عدم قبولى بدار العلوم بعد نجاحى ، وهو الهدف الأخير ! ويل للآباء من الأبناء !!

هذا يكون حال الوالدين ، وابنهما هادئ مطمئن للمقادير والأحكام ! يقول الولد اعلام تحزن الأم ، ولماذ يأسف الأب ؟ وابنهما بخير ! ولسان حال الوالد يقول : كيف لا يأسف الوالد وهو فى انتظار جنى ثمار تعبه فى حياته سنوات طوالا ، يرقب فيها ابنه يرقى مدارج الرقى ، حتى إذا ما انتهى إلى المرحلة الأخيرة ، كان كالنملة التى تجاهد فى تسلق أسطوانة عالية ، فلا تكاد تصل إلى قمتها حتى تزلق أرجلها فتعود حيث بدأت ؟ وهل فى حياة الوالدين بقية تعادل تلك السنوات الماضية من عمر ابنهما ؟ ومن ذلك الوقت والطالب يردد هذه العبارة الآتية: ويل للآباء من الأبناء ! غير أنك إذا اطلعت على خبيئة نفسه وجدته يقابل الحوادث القاسية بدون اكتراث ، فهى تصدمه فلا يتململ ولا يتضجر ولا يتزعزع ، معتقداً أن كل أحداث الزمان سحابة صيف عن قليل تقشع ! وبقاء الحال من المحال ! وقد يكون الأب متصنعا فى زجره لولده حتى لا تموت عاطفته العلمية ، وقد يكون متفقاً مع ابنه فى فكرته نحو صدمات الزمان ، مؤمناً بقوله تعالى « لكيلا لا تأسوا على مافاتكم ، ولا يجهل ما ترمى إليه الآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . » !

دخل الطلاب المقبولون دار العلوم فى أوائل أكتوبر

سنة ١٩٠٩ ، وعدت أدراجي إلى الأزهر ، فجددت الانتساب إليه مستعينا على قبوله بالأستاذ الجليل المرحوم الشيخ محمد ماضى الرخاوى ، وكان من خيار العلماء الصالحين ، كما استعان والدى بابن خال أمى ، وكان يزعم أنه يعرف سعد زغلول باشا « ناظر المعارف » مذ كان محاميا ، وسيخاطبه فى أمر دخولى دار العلوم. ولكن ، ألم يكن صهره « إدريس بك » أستاذاً كبيراً بدار العلوم وكان هو المهيمن على قبول الطلاب ، وكان فى استطاعته أن يجعلنى من المقبولين ما دمت ناجحاً متقدما ؟ ! أراد الله ألا يجعل علىّ يداً للأصهار فى دخول دار العلوم ، ولا لهذا الشيخ الجليل فى قبول الانتساب فى الأزهر ، فدخل مشيخة الأزهر من باب ، وخرج من الباب الآخر ، ورُدّ الانتساب مرفوضا من الشيخ شاكر ، وكلمته كانت الأولى والأخيرة ، كما تخطتنى دار العلوم فى القبول بها ، ولم ينجح هذا الخال فى رجاء سعد باشا ، فكتب إلىّ يقول : « كلمت صديقا لى بالمعارف فقال إن الفرصة قد فاتت هذا العام ، فاجتهد فى دروسك ، وبركة دعاء الوالدين تحصل إن شاء الله والسلام » .

تسلمت الانتساب المرفوض ، وشفعته المقادير بهذا الخطاب فأسلمت أمرى يومئذ لله ، الله وحده الذى عودنى ألا ألجأ لمخلوق فى مهمة ، فليس لأحد أثر فى الوجود غيره ، ولم يفتنى أن

وبخت نفسى على إغفال تلك العقيدة وقتا ما ، ويئست من رجاء المخلوقين وعدت إلى الخالق ، مستنجداً ببركة دعاء الوالدين ، حين اشتدت الأزمة ، واشتدادها كان مفتاح الفرج ! جلست يوم الثلاثاء ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٠٩ حوالى الساعة التاسعة فى مجلس بالأزهر ، وحولى بعض إخوانى يصوغون لى عبارات الأسى والأسف ، لما حل بى من كل ناحية ، وحضر بعضهم فضايقنى بطلب يفض هذا المجلس ، فأردت صرفه عنى ووجهته إلى « الحاج مرسال البنان بجوار الأزهر » وهو محط المكاتبات ، ليبحث عن الخطابات ، فعاد ومعه خطاب باسمى ، ففضضته فإذا به من أبى محولا من مراسلى ، مرسلا من دار العلوم تطلب فيه أن أتوجه إليها صبيحة الثلاثاء ، إذ قبلتنى طالبا بها !! الله أكبر ؟!

طويت الخطاب بهدوء ، وانصرفت إلى المنزل ، بعد استئذان من حولى ، ولبست ملابس دار العلوم ، ومثلت أمام وكيلها قبيل الظهر ، بعد أن قدمت له جواب القبول ، فعجب من أنهم تخطونى ، مع حصولى على الدرجة التى حددوها فى الخط لقبول الطلاب !! لست أريد أن أودع القارىء ، بعد أن جلست على كرسى فى دار العلوم ، قبل أن أقص عليه حكاية وأسطورة !

أما الحكاية فهى أن الأسابيع الثلاثة التى مضت بعد دخول من سبقونى إلى دار العلوم كانت مجال أخذ ورد فى عدم دخولى

الدار ؛ ورحم الله أستاذى عبد الرحمن زغلول حين قال للطلاب وقت انتظار النتيجه : إنهم تركوا الرابع فى الناجحين ! !

ومن العجب حقا أن يترك الرابع ، ويقبل الرابع والأربعون! وما علينا أن نبحث عن أنهم اختصروا ٤٥ طالبا إلى ٢٥ لتوفير فصل من دار العلوم ، لفتحه فى مدرسة القضاء الشرعى ، التى كانت تزاحم دار العلوم إذ ذاك ، وليكتفوا بفصل واحد ؛ وإنما الذى يهمنا أن نسرد الحكاية .

كان صديقنا (المرحوم) الشيخ على عبد الخالق الطالب بالسنة الثانية بالمدرسة ، محور الهمس الخاص بدخولى ، وكان يود من قلبه أن أدخل دار العلوم — أخذ يدعو لوجودى بها ويعرض بكفايتى ، وخاطب فى ذلك أستاذنا الحبيب الشيخ محمد فخر الدين أستاذ الخط ، فقال له : « من عبد الجواد هذا ، الذى تذكرنا به فى كل حصة ؟ ! ليكتب لى ورقة أتبين منها خطه ! » وإجابة لرغبته كتبت له ورقة خط أشبه بورقة الامتحان ، هذه صورتها :

الثلث : بشر من جاور الكرام بعز واحترام

النسخ : وأعلم بأن التبر فى عرق الثرى

خاف الى أن يستشار بنبشه

الرقعة : من سوء الحظ أنه فاتنى صنعه الخط فى الاصفهانه

هنيئاً لحاذاك العزاء الطقرما قما عيسى المعزوله منى تبسما

عجب الأستاذ الشيخ فخر الدين ، لما قرأ فى هذه الورقة من أقوال مقصودة أو غير مقصودة ، ولما رأى من خط حسن ؛ ولكنه بعد أيام أخبر الشيخ على أن « بلديك » سيقبل بالمدرسة غير أن صديقنا لم يكن يعتقد تحقق هذا النبأ ، حتى إنه بعد أن رآنى فى فناء الدار بجبتى وقفطانى قال متمنيا : أما لو كنا نلتقت فنراك معنا ! ؟ فقلت له : أنا معكم، أنا فى الدار ، ولكنى سأخرج للغداء خارجها ، لأنى حضرت بعد كتابة عدد الطاعمين ! وقبل أن أنتقل بك إلى الأسطورة، أذكر أن الأستاذ الشيخ محمد فخر الدين هذا ، كان مثار إعجاب من لم يكونوا تتلمذوا عليه ، بله تلاميذه ، فكنا نحن الطلبة فى امتحان الدخول نشعر بدماثة خلقه ورقته وظرفه ؛ وللتاريخ والتدليل على هذا سميتُ باسمه أول أبنائى : محمد فخر الدين ، الذى ولد فى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ فى أثناء امتحان الدخول ، وكان قد كتب الىَّ والدى طالبا تسميته .

وأما الأسطورة فقد سمعت ، ولا أذكر ممن ، أن كان

من الطلاب المرفوضين طالبان ، أحدهما ترتيبه ١٢ والثانى ١٨ وكانا « محسوبين » على صديقين عزيزين لسعد زغلول باشا ، إلا أن صلته بواسطة المتقدم أضعف من صلته بواسطة المتأخر ، وكان كل من الصديقين يسعى لدى سعد باشا فى قبول طالبه مع علمه بمسعى الآخر . فتحير سعد باشا « ناظر المعارف » إذ ذاك ، وقال إن أرضيت العدالة وقبلت المتقدم ١٢ غضب الصديق الآخر وهو علىّ عزيز . وإن أرضيت هذا الصديق وقبلت المتأخر ١٨ أغضبت العدالة وضميرى والله ؟ ! ثم قال للموظف الذى يعرض عليه الأمر : أليس هناك غير هذين الطالبين ؟ ؟ فقالوا له هناك طالب ترتيبه الرابع ؛ فتنفس الصعداء ، وأمر بقبوله ، قائلا : لنعتبر أن الله يوصى به ، وبذلك استراح ضميره وأرضى صديقيه .

هذه أسطورة ، ألقيتْ إلىّ ، ولا علم لى إلا بمدلولها ، أما قائلها وشاهدها وزاويها ، وصحتها ، فعلم ذلك عند الله [١] !

ولعلك سائل : كيف قبلت بالمدرسة بعد أكثر من عشرين يوما من افتتاح الدراسة ودخول المستجدين ؟ ! ليس الأمر غريبا ، فقد اشتبه الطبيب فى طالب من المقبولين ، مريض بذات الصدر ، فتقرر فصله ، وبذلك خلا مكانه فاحتاجوا إلى

---

(١) أخبرنى بعض الأصدقاء أخيراً ، أن الذى روى هذه الأسطورة هو المرحوم أستاذنا عبد الرحمن زغلول ابن أخى سعد زغلول باشا .

طالب جديد يحل محله . وكان سعى بعض المرفوضين ثم كان قبولى مكان هذا الطالب على ما رأيت وسمعت .

أما الطالب الذى حللت مكانه ، فقد دخل دارالعلوم فى العام التالى ، وتخرج فى سنة ١٩١٥ بعدى بسنة ، بعد أن كنت سأكونه ، والله المقدم والمؤخر ! ولا زال أخونا هذا ممتعا بالصحة والعافية ونحن فى سنة ١٩٤٧ م .

هذا وإلى اللقاء — أيها القارىء الكريم — فى دارالعلوم!

كلمة تاريخية

الجامعة الأزهرية

حينما فتح عمرو بن العاص مصر ، وبنى بها مسجده سنة ٢١ هـ اتخذه جماعة من الصحابة والتابعين ، مركزا علميا لنشر الدين الإسلامى ؛ وكان زاوية للامام محمد بن ادريس الشافعى يدرس فيها مذهبه ويدون آراءه ، وفيه وعليه تخرج كثير من العلماء الذين اشتغلوا بتدوين مذهبه .

وقد ظل التدريس فى الجامع العتيق مدة طويلة ، وهو عامر الحلقات ، ثم اقتفى أثره جامع احمد بن طولون .

ولما فتح الفاطميون مصر ، ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) ، بنى جوهر قائد المعز لدين الله ، الجامع الأزهر بعد عام من فتحها ، وفتح للصلاة فيه سنة ٣٦١ هـ ٩٧٢ م وابتدأ التدريس فيه سنة ٣٧٨ هـ . ويقال إن تسميته بالأزهر إشارة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

والأزهر هو المسجد الجامع ، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى ؛ التى استقر بها تدريس العلوم الدينية ، بعد أن بدأ بالمسجد العتيق ، منذ الفتح الإسلامى .

وقد كان الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين ، فزادوا فى بنائه ، وحبسوا عليه الأوقاف . وفى عهد الأيوبيين أنشئت المدارس التى كانت تدرس فيها علوم اللغة والدين ، فخلا منها الأزهر . وقد منع صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م الخطبة فيه ، اكتفاء بخطبة جامع الحاكم ، عملا بمذهب الشافعى فى عدم إقامة خطبتين فى بلد واحد، كما أنه قطع كثيرا من الأوقاف التى حبسها عليه الحاكم .

ولكن الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ زاد فى بنائه ،وشجع التعليم فيه ، وأعاد إليه الخطبة سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧م ، وقد حذا حذوه كثير من الأمراء . ومنذ ذلك العهد ، ذاع صيت المسجد ، وأصبح معهدا علميا يؤمه الطلاب من كل فج ، ولقى من عناية البلاد شيئا كثيرا ، وبخاصة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية ، وانحلال مدارس العلم فى المشرق والمغرب .

وكان قايتباى أكثر الولاة رعاية للأزهر فى القرن التاسع الهجرى ، كما أن عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٩٠هـ زاد فيه زيادة عظيمة ، وجدد فيه كثيرا ، وأنشأ به منشآت عدة .

أما فى العهد العثمانى فقد أفل نجمه قليلا ، غير أن المتأخرين من الخديويين عملوا على إعادة مجده ، واتساع صيته ، وآثار

عباس ، وفؤاد ، وفاروق به ، لا تزال ماثلة أمام الأعين .

وكان للأزهر أهمية عظيمة ، اكتسبها من موقع مصر فى وسط العالم الإسلامى ، وقربها من الحجاز ، وصبغتها العربية ، وأهميتها الاقتصادية ، ولعراقة وادى النيل فى الثقافة العقلية القديمة ؛ ولهذا كان قبلة أهل العلم من جميع أنحاء الكرة ، كما يدل على ذلك ما به من الأروقة ، التى ضمت الأتراك والهنود والجاويين ، والدكارنة وأهل الحرمين الشريفين ، واليمن والعراق والبرابرة ، والصوماليين ، والأفغان والشوام والمغاربة وأهل بورنيو وغيرها .

وقد كانت طريقة التعليم فيه أولا ، وقبل كثرة المؤلفات وانتشارها ، الطريقة الإملائية ، وفيها يملى الأستاذ على الطلبة ما يريد من المسائل . ثم جاءت طريقة الشرح والتفسير للمتون أو المختصرات ، وكان عمادها الحوار بين الأستاذ والطلبة ، مما ينمى القوى العقلية ويربى ملكة الفهم .

وقد بقى الأزهر فى عزلته ، يسير سيراً فطريا ، أساسه التقوى واحترام الدين وأهله ، ولا يساير النهضة الحديثة ، فلم يكن به شىء من مظاهر النظام والترتيب ، فى التدريس والامتحان ، والمواظبة والمرتبات وغيرها ، حتى جاء المغفور له الخديو اسماعيل باشا ، فوضع أول قانون للأزهر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) وهو المعروف بقانون الشيخ المهدى . وقد نظم هذا

القانون طريقة الحصول على شهادة العالمية ، ونص على مواد الامتحان ، وقسم الناجحين فيه إلى ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة) .

وفى ٢٠ من المحرم سنة ١٣١٤ هـ (أول يوليه سنة ١٨٩٦م) صدر القانون الثامن للجامع الأزهر ، وقد أضاف للعلوم الدينية كثيرا من المواد الجديدة ، هى : الأخلاق ومصطلح الحديث ، والحساب والجبر ، والعروض والقافية ، وجعل التاريخ الإسلامى والخط والإنشاء ومتن اللغة ومبادىء الهندسة ، وتقويم البلدان مواد اختيارية ، يمتاز محصلها عن غيره ، ويقدم عليه فى الوظائف والمرتبات . وكان الفضل فى ذلك للمجهود الذى بذله المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولروح الإصلاح الذى أراد بثه فى نفوس الأزهريين ، ولكن خروجه من مجلس إدارة الأزهر ، ثم وفاته سنة ١٩٠٥ م أحدثا فى الأزهر حركة رجعية ، غير أن معهد الاسكندرية كان قد أسس سنة ١٩٠٣م .

ولما أنشأت الحكومة مدرسة القضاء الشرعى بقانون سنة ١٩٠٧ م وصدر القانون رقم (١) للجامع الأزهر وماشاكله من المدارس الدينية العلمية الإسلامية بتاريخ ٢ من صفر سنة ١٣٢٦ هـ (٥ من مارس سنة ١٩٠٨) ، المعروف بقانون النظام ، قامت بالأزهر فتنة ، انتهت باصدار القانون رقم (١٠ لسنة ١٩١١ م) وقد اعتورت هذا القانون الأخير ،

تعديلات بقوانين أخرى، أظهرها قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م الذى به أنشئت ثلاث كليات للدراسة العليا لمدة أربع سنوات، بعد القسم الثانوى، ومدته خمس سنوات، والقسم الابتدائى، ومدته أربع سنوات. والكليات هى. كلية أصول الدين، وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية، كما أوجد تخصص المادة وتخصص المهنة.

ولما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٥ م أراد أن يرجع بالأزهر إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمى الصحيح، ويكون طالبا يفهم مسائل العلوم فهما صحيحا ويدرك أغراضها وصلتها، ويستطيع الاستنباط والتدليل، وفهم الكتب التى ألفت فى العصور المختلفة فى جميع الفنون الأسلامية، فعمل على إعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، باستصدار مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ م الذى عدل بمرسوم بقانون رقم ٨١ لسنة ١٩٣٧ م وبقانون رقم ٦١ لسنة ١٩٣٨ م

المعاهد الدينية التابعة للأزهر

أطلق اسم الجامع الأزهر أخيراً على كليات التعليم العالى (أصول الدين للدعوة والإرشاد ، والشريعة للقضاء الشرعى ، واللغة العربية للتدريس بالمدارس) وعلى أقسام التخصص .

أما المعاهد الدينية فيراد بها معاهد التعليم الدينى الإسلامى التى تعد الطلاب لدخول الجامعة الازهرية .

والمعاهد الدينية الموجودة الآن هى :

١ — المعهد الأزهرى بالقاهرة وبه قسم ابتدائى وقسم ثانوى

٢ — معهد الاسكندرية (١٩٠٣ م) »

٣ — معهد طنطا (١٩١٣ م) »

٤ — معهد أسيوط (١٩١٥ م) »

٥ — معهد الزقازيق (١٩٢٥ م) »

٦ — معهد دمياط سنة ١٣١٣ هـ وبه قسم ابتدائى فقط

٧ — معهد دسوق سنة ١٣١٤ هـ »

٨ — معهد شبين الكوم (١٩٣٧ م) »

٩ — معهد قنا (١٩٣٨ م) »

ويجدر بنا أن نختتم صفحات هـذا الكتاب بكلمة عن المعهد الاحمدى ، خاصة ، لأنه « خليفة » الجامع الأحمدى .

المعهد الأحمدى

(١) لما ضاق نطاق الجامع الأحمدى بالطلاب ، أنشئ المعهد الأحمدى الجديد . وقد تم بناء الطبق الأرضى منه ، مع معدات التعليم فيه ، فى أواخر رمضان سنة ١٣٣١ هـ وبدأت الدراسة فيه يوم ٢١ من شوال سنة ١٣٣١ هـ (٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٣)

(٢) وهو بناء فخم ، على النمط العربى الجميل ، بجوار محطة السكة الحديدية (وهذا ماتأخذه على اختيار هذا المكان ، بين صفير القطر ، وأصوات العجلات ، وقعقعة الحديد ، وفى مهب دخان القاطرات) ، وهو بأول شارع السكة الجديدة ، يشغل مساحة واسعة ، وله بابان أحدهما فى الشمال والثانى فى الغرب وبه دائرتان مشتملتان على ٣١ حجرة للإدارة ، محيطة بايوانات كالمساجد العربيه ، وثلاث حجر للإدارة ومسجد جميل يحلى صدره ، ومطهرة فسيحة . وقد تم بناء الطبق الثانى منه فى عهد المغفور له السلطان حسين كامل .

ويعتبر بناء المعهد الأحمدى (وما تلاه من المعاهد الدينية التى بنيت بقواعد الأقاليم الأخرى) ، دخولا فى طور حديث من أطوار دور التعليم الإسلامى .

فقد كانت حلقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى مسجده ، أول حلقات التعليم فى الإسلام ، ثم تلاها حلقات العلماء فى المدارس التى كانت تجمع بين المدرسية والمسجدية ، أى بين الدراسة والعبادة .

وباستقلال هذه المعاهد وانفرادها ، امتنع التهويش واختلاط الأصوات التى كانت فى الجوامع ، وأصبح الاستعداد لتعليم العلوم الحديثة سهلا وميسورا ، بطرق علمية وعملية .

« والله أعلم »